You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

جيمس فرجريف

الجغرافيا .. السيادة والتاريخ

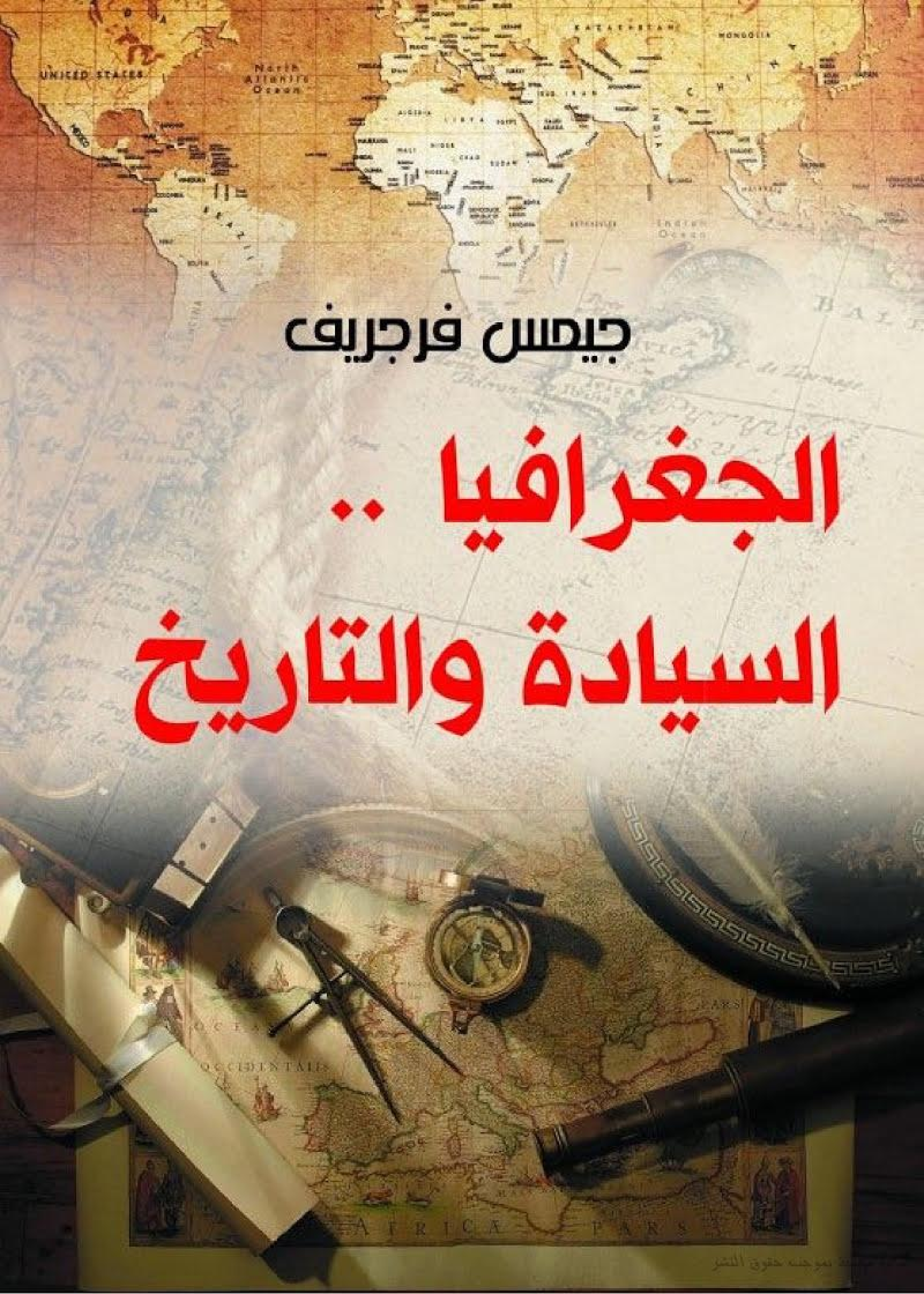

الكتاب: الجغرافيا .. السيادة والتاريخ
الكاتب: جيمس فرجريف
ترجمة : علي الأنصاري
تقديم ومراجعة : د. فتحي عبد العزيز
الطبعة: 2019

الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575
فاكس : 35878373
http://www.apatop.com :E-mailnews@apatop.com

APA

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in .writing of the publisher

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

فرجريف ، جيمس
الجغرافيا .. السيادة والتاريخ / جيمس فرجريف , ترجمة : علي الأنصاري, تقديم ومراجعة : د. فتحي عبد العزيز - الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
451 ص، 18 سم.
الترقيم الدولى: 8 – 895 – 446- 977- 978
أ – العنوان   رقم الإيداع : 26285 / 2018

الجغرافيا .. السيادة والتاريخ

مادة محمية بموجب حقوق النشر

وكالة الصحافة العربية

«ناشرون»

مادة محمية بموجب حقوق النشر

مقدمة

ليست الجغرافيا التاريخية أحد فروع الجغرافيا الطبيعية أو الجغرافيا البشرية، وإنما هي جغرافية الماضي بجوانبه الطبيعية والبشرية، بمعنى أنها لا تقتصر في دراستها على الظروف الطبيعية للماضي، وإنما تهتم بدراسة النشاط البشري كذلك؛ ولا يمنع ذلك من أن تكون هناك دراسات عن الجغرافيا المناخية في الماضي، أو دراسات عن الهجرات البشرية. ومجمل القول إن الجغرافيا التاريخية تضم في رحابها وجهي الجغرافيا الطبيعية والبشرية لتجعلهما علماً واحداً، موضوعه جغرافيا العصور السابقة، ومن هنا اكتسبت اسم تاريخية.

وتستمد الجغرافيا التاريخية مادتها من عدة علوم، فهي ذات صلة وثيقة بفروع الجغرافيا الأخرى خاصة الجيومورفولوجيا، والجغرافيا المناخية، والجغرافيا الحيوية، إضافة إلى الجغرافيا البشرية بفروعها المختلفة، وتستعين الجغرافيا التاريخية بعلم المناخ القديم للتعرف على الأحوال المناخية التي سادت مناطق العالم في العصور المختلفة. وللجغرافيا التاريخية صلة وثيقة بعلم الآثار، إذ يلجأ دارس الجغرافيا التاريخية إلى الآثار التي خلفها الإنسان، فعن طريق ما خلفته المجتمعات القديمة يتمكن الأثريون من تجميع الأدلة التي تفيد دارس الجغرافيا التاريخية. ومن العلوم الأخرى علم الأنثربولوجيا بشقيه الطبيعي والحضاري، وهو يُفيد الجغرافيا التاريخية في التعرف على الحضارات المختلفة، وكيفية ملاءمتها واستمرارها أو تغيرها. وتهتم الجغرافيا التاريخية باللغويات؛ فعن طريق التحليل اللغوي يتمكن دارس الجغرافيا التاريخية من التعرف على الإنسان في الفترات التاريخية المختلفة، إذ تعد اللغة هي وسيلة للحفاظ على الحضارة ونقلها من جيل إلى آخر. ولا شك أن العلاقة وثيقة بين الجغرافيا التاريخية وعلم التاريخ.

يعتقد البعض أن الجغرافيا قديمة بقدم الجنس البشري فمع مرور الزمن سعت المجموعات البشرية المختلفة للعيش بتناسق مع وسطها البيئي الطبيعي من خلال اكتشاف الأماكن التي تتوافر فيها متطلبات الحياة الأساسية (مثل المسكن والملبس والمأكل) بهدف اتخاذها كأماكن استقرار وأمان كما دفع حُب الاطلاع للمجموعات

مادة محمية بموجب حقوق النشر

البشرية الأخرى القيام برحلات استكشافية إلى مناطق كانت مجهولة بالنسبة إليهم ووصف ما شاهدوه في تلك الأماكن, فعملية وصفهم للأماكن التي اكتشفوها خلال أسفارهم يعتبرها البعض بحد ذاتها نقطة البداية لعلم الجغرافيا, أما التطورات الأخرى التي طرأت على الفكر الجغرافي عبر العصور.

منذ وقت طويل, والإنسان يحاول باستمرار تطوير معرفته بالعالم الذي يحيط به, فعلى سبيل المثال عرف المصريون القدماء كيفية قياس مساحات الأرض وكيفية توجيه مبانيهم, كما حددوا عدد أيام السنة, أما الفينيقيون المعروف عنهم بكثرة أسفارهم واكتشافاتهم للأقاليم غير المعروفة فقد طوروا العديد من المهارات الملاحية وأبرزوا الاختلافات المناخية بين الأماكن المختلفة، وبالرغم من أن عناصر المعرفة الجغرافية قد ساهمت بها كل حضارة من حضارات العالم المختلفة, إلا أن الإغريق القدماء كانوا أول من قدم معلومات جغرافية تفصيلية وبالتالي فهم بحق مؤسسو علم الجغرافيا.

لعل أول جغرافي إغريقي هو الشاعر هوميروس homer فملحمة الأوديسة odyssey لهوميروس تضمنت وصفا جغرافيا لأماكن مختلفة في إقليم البحر المتوسط بالرغم من إن مغزى ملحمته لم يكن بالتحديد تقديم الوصف الجغرافي وإنما هو الإخبار عن مغامرة مثيرة, وبعد هوميروس بحوالي خمسمائة عام, ألف هيكتاتيوس hecataeus كتابا بعنوان وصف الأرض description of the earth حيث يُعتبر الأول من نوعه الذي يهدف إلى وصف الأرض؛ فالعالم طبقا لهيكاتيوس هو أساسا منطقة البحر المتوسط.. وقبل بداية القرن الخامس قبل الميلاد تطورت كتابات الإغريق من الوصف إلى محاولة التفسير, فهيرودوت Herodotus المعروف بميوله وتخصصه بدراسة التاريخ إلا أنه قام ببحث الكثير من المواضيع الجغرافية فقد ترتب على أسفاره الكثيرة وكتاباته الوصفية حينا والتفسيرات حينا آخر للأماكن التي زارها للمساعدة في توضيح العديد من القضايا الجغرافية.

أما بلاتو Plato فقد أشار خلال القرن الرابع قبل الميلاد إلى أن الأرض كروية وفي الوقت ذاته افترض eudoxus بأن النطاقات المناخية Kilmer تطوق الأرض, فكانت الأفكار التي جاء بها كل من بلاتو وeudoxus مجرد أفكار نظرية تحتاج إلى مزيد من الإثبات والبرهان, فقد حاول أرسطو Aristotle تلميذ بلاتو إيجاد البرهان القوي لإثبات الأفكار التي جاء بها بلاتو؛ فلاحظ أرسطو ظل الأرض الدائري على

مادة محمية بموجب حقوق النشر

سطح القمر، وبيّن أن درجات الحرارة تتناقص كلما ازدادت المسافة عن خط الاستواء, أما ألكسندر العظيم Alexander the great بصفته أحد تلاميذ أرسطو فقد ساهم في تطوير المعرفة الجغرافية الإغريقية من خلال القياسات التي قام بها خلال حملات الغزو التي رافقها فقد ضمنت تقاريره التي أعدها معلومات جغرافية قيمة عن الأماكن التي شاهدها.. وآخر علماء الإغريق العظماء المعروفين بمساهمتهم في المعرفة الجغرافية هم ايراستوتين Eratosthenes وسترابو strobe لقد دعي ايراستوتين مرارا بأبي الجغرافيا لأنه أول من حدد معنى مفهوم الجغرافيا المؤلف من شقين geo ومعناها الأرض graph's ومعناها وصف, كما انه أول من قام بقياس محيط الأرض باستخدام زاوية سقوط أشعة الشمس والمعادلات الرياضية ما اشتملت مساهمات إيراستوتين على تصميم خارطة العالم بين عليها كل من أوروبا والهند وليبيا أما استرابو بالرغم من إضافاته الضئيلة على المعرفة الجغرافية إلا أنه كان الفضل له في تأليف كتاب الجغرافيا الذي تكون من سبعة عشر مجلدا، وتبرز أهمية هذا الكتاب بأنه يعد تجميعا للإضافات الجغرافية الإغريقية بوجه عام، لقد قدم الإغريق القدماء الاسم والإطار الذي يمكن العمل من خلاله في إضافة المزيد من المعلومات الجغرافية من قبل كل باحث فيما بعد.

لقد انتهى عصر الاكتشافات الجغرافية بظهور أعمال اثنين من رواد المدرسة الجغرافية الألمانية الحديثة، وهما ألكسندر همبولت Alexander von Humboldt وكارل ريتر kar Ritter حيث كان لكليهما التأثير الكبير على مسيرة الفكر الجغرافي مما دفع فريق من الباحثين بالاعتقاد بأنه كان لهامبولت وريتر الدور الحاسم في نهاية الحقبة الكلاسيكية بالجغرافيا وبداية الجغرافيا الحديثة كما اعتبر هامبولت بأنه مؤسس الجغرافيا الطبيعية الحديثة، وريتر بأنه مؤسس الجغرافيا الحضارية.

وبالرغم من عصرية الفكر الجغرافي لكل من همبولت وريتر إلا أنهما يختلفان اختلافا بيناً في المنهج المتبع من قبل كل منهما عند معالجة الموضوعات الجغرافية فهامبولت كان رحالة وكاتبا للظواهر التي شاهدها في رحلاته العديدة غير أنه أيضا نحى منحى التفسير من خلال الفرضيات التي وضعها.

أما ريتر الذي عمل في مهنة التدريس في إحدى الجامعات الألمانية فقد ساهم في تطوير مفاهيم الترابط بين السكان ووسطهم البيئي الطبيعي حيث افترض وجود

مادة محمية بموجب حقوق النشر

نوع من الترابط العضوي بين السكان وبين الطبيعة.. ولقد تبنى وجهة النظر هذه كثير من الباحثين، كما أنه دار جدل حولها فيما بعد..

ومن أوجه الاختلاف الأخرى بين كلا من ريتر وهامبولت هي أن نظرة هامبولت إلى العالم نظرة شمولية بينما اتجه ريتر نحو المنهج الإقليمي حيث ركز على دراسة الأقاليم.

أما أوجه الشبة بين كلاً من هامبولت وريتر فتتمثل في ميل كل منهما نحو إضفاء الصبغة العلمية على الجغرافيا، كما أنهما يرون أن الجغرافيا في تعاملها مع الظاهرات والحوادث ذات الأصول المختلفة مترابطة في جهات مختلفة من العالم كما أشار إلى الحاجة الماسة لتطوير مفاهيم جغرافية عامة تتعلق بوجود العلاقات القوية بين الظواهر الجغرافية والبشرية والطبيعية.

إن هذا الكتاب الذي بين يديك يُمثل محاولة طيبة ترمي إلى شرح العوامل الجغرافية وتوضيح أثرها في توجيه التاريخ. وقد أسهب المؤلف في دراسة الحضارة المصرية لأنها في نظره بعثت النور والعرفان إلى شتى نواحي العالم، وكانت البذرة الأولى التي أخذت عنها الحضارات القديمة والحديثة في مختلف العصور وقد نظر المؤلف إلى البيئات المختلفة نظرة صادقة ناقدة وقام بدراسة الحقائق الجغرافية فيها ووصل بهذه الدراسة إلى تكييف التطور التاريخي في كل منها.

ومعني هذا تفسير التاريخ بأسلوب يسمو كثيرا عن مجرد سرد الوقائع والأحداث بدون إشارة إلى العوامل الجغرافية الأساسية، وقد وصل بهذا المجهود إلى بحث فلسفة الحضارة الإنسانية وكيف أنها رغم تنوعها في البيئات المختلفة ترمي دائما إلى إسعاد البشر ورفاهيتهم، وتدعو إلى التقارب بين الأمم وإلى توطيد روح التفاهم بينها..

وما بين يديك كتاب كنز يزخر بالكثير الذي سيُبهرك وسيُبهر كُل من يقرأه لأنه كتاب قيم في ذاته ملئ بمعلوماته؛ لذا استمتع به؛ واغتنم فرصة وجود هذا الكنز الكبير بين يديك وانهل منه كما تشاء.

د. فتحي عبد العزيز

تمهيد

مادة محمية بموجب حقوق النشر

ما العالم إلا مسرح كبير

في هذا المؤلف محاولة لقصة محبوكة الأطراف تبين أن نظامًا حقيقًا ينتظم أحداث ها الكوكب السيار وأن بدت في ظاهرها خالية من كل نظام يربط بينها. ولما كنا نتناول تاريخ العالم وجغرافيته في مثل ها الحيز الضيق كان من الضروري أن نتحاشى ذكر الكثير من التفاصيل، وقد تختلف الآن فيما يجب حذفه، وقد تظهر للناس بعض الأشياء على صورة تختلف عن صورتها في نظر المؤلف، ولكن صدق هذه النظرية في مجموعها لا يتوقف على دقة هذا التعبير أو ذاك أو على هذه النظرة أو تلك، ويجمل بنا أن نؤكد بوجه خاص أن هذا الكتاب وهو يعالج تاريخ العالم إنما يعني بوجه واحد منه, وغايته الرئيسية في الحقيقة هي العناية بالمسرح وإعداده، لا بتمثيل المسرحية ذاتها، وهدفه هو تبيان كيف كان المسرح معدًا في فترات مختلفة من التاريخ العالمي، كما يعني بصفة خاصة بإعداد المسرح الحالي لتمثيل المسرحية في الوقت الحاضر.

وقد يبدو هذا الكتاب لأول نظرة عابرة أنه يمثل ناحية مادية ولكن ماديته في الحقيقة ترجع إلى أن طبيعة البحث تفرض العناية بالنواحي المادية.

وقد تتبعنا الطرق التي أثرت بها العوامل الجغرافية في الممثلين، وأغفلنا النواحي الروحية للمسرحية والتي لا تبرز أثر العوامل الجغرافية ولكن هذا لا يعني أنها غير قائمة.

جيمس فيرجريف

-

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الفصل الأول

الجغرافيا صانعة التاريخ

وضع ها الكتاب ليظهر كيف أن تاريخ العالم قد سيرته عوامل ووجهته ظاهرات تدخل جميعها تحت كلمة "جغرافية"، وليبين أي الحقائق الجغرافية جوهرية حقًا وذلك بملاحظة العوامل التي لها أكبر الأثر في توجيه التاريخ.

وفي هذه الجملة الأخيرة نجد ثلاث كلمات يجب أن ندرك المقصود منها تمامًا وهي:

"التاريخ" و"التوجيه" و"الجغرافيا"

1- التاريخ: إذا تكلمنا عن التاريخ على هذا النحو فإن كلامنا ينصب بطبيعة الحال على تاريخ الإنسان على وجه الأرض، ومع ذلك فإن التاريخ يشمل معاني عديدة منها ما يلي:

(أ) قد يكون التاريخ مجرد سرد لجميع الأحداث التي وقعت وفق الترتيب الزمني لحدوثها دون أي تعليق، وحين ندرس التاريخ تحتم الضرورة معرفة الكثير عن هذه الأحداث، ولكن مجرد العلم بها لا يثير اهتماما كبيرًا، بل ولن يستطيع أحد الإلمام بهذه الحوادث كلها حتى وإن تيسر لها جمعها. فلا مناص إذن من أن نتير منها أعظمها أهمية.

(ب) ومن ثم فنن نخرج بفكرة أخرى عن التاريخ باعتبار أنه رواية لأكثر الأحداث أهمية حسب ترتيب حدوثها، على أنه ينبغي عند انتخاب أهم الأحداث.

أن نقارن بينها حتى نكم أيها أكثر أهمية. ولكن نقوم بهذا العمل يجب بطبيعة الحال أن نفكر لماذا هي "هامة". وعندئذ نجد أن الأحداث تكون هامة إذا أثرت في خير البشر إلى حد كبير، وهي أقل أهمية إذا لم تؤثر في الإنسان إلا قليلا.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

(جـ) وهكذا تخطر على أذهاننا في الحال فكرة ثالثة عن التاريخ باعتبار أنه قصة للأحداث الهامة والأسباب التي سببت حدوثها والآثار التي خلفتها في الإنسان، وعند تقدير هذه الأهمية يجب أن نذكر أن بعض الأحداث يؤثر في الإنسان أثرا عميقا لفترة ما ولا يؤثر إلا قليلا بعد ذلك. على حين لا يؤثر بعضها الآخر في الإنسان إلا قليلا في مبدأ الأمر ويظل تأثيرها يفعل فعله أمدا طويلا.

فإذا ما نظرنا إلى التاريخ على هذا النحو وجدنا أن بعض الحوادث التي تبدو قليلة الأهمية هي في الواقع أحداث هامة، وفي الوقت ذاته قد تبدو بعض الحوادث الأخرى هامة جدا ولكنها في واقع الأمر دون هذه المرتبة، ونجد أيضًا أن الأسباب والنتائج التاريخية متشابكة متداخلة حتى لتجعل من التاريخ وحدة كاملة حية، فإن بعض الحوادث المعينة قد أدت بطبيعة الحال إلى أحداث أخرى، وأن ما قام به فرد أو قبيلة أو أمة عينها قد أثر في حياة أناس أخرين وأمم أخرى، هذا وأن دراسة التاريخ شائقة جدًا ومرجع ذلك هو أنها إحدى الدراسات التي تعالج أمور البشر وعلاقاتهم بعضهم ببعض، كما تعني بالأثر الذب يتركه كل إنسان أو كل مجموعة من الناس في الآخرين. وأننا نعلم أيضًا من دراسة التاريخ أن جماعات من البشر، وإن بعدت الشقة بينها في الزمان والمكان ومع ذلك فهم يتصفون بخصائص جد متشابهة، حتى أن بعض الأحداث المتشابهة جدًا قد تحدث في مناطق جد مختلفة من العالم، وقد يختلف زمن حدوثها بل وقد تفص بينها عدة قرون من الزمان، وما حدوثها نفسه إلا نتيجة هذا التشابه، ومن هذا يبدو اتجاه التاريخ "لأن يعيد نفسه" كما يقال.

ولكن التاريخ ليس كله تكرارًا بل فيه تقدم وفيه رقي. وقد لا نلحظ ذلك إذا رجعنا إلى الوراء عاما أو عامين ولكنا لو رنونا بأفكارنا إلى الوراء قرونًا وشملت نظرتنا العالم بأجمعه لأمكننا أن نلحظ أن تقدمًا قد حدث وإذا اتسعت نظرتنا فشملت تاريخ العالم بأجمعه إرداد ظهور هذا التقدم وضوحا. وقد يغلب علينا الريب في التعبير عما نقصد بكلمة "تقدم" ولكنا في الواقع نلمسه على كل حال، فنحن ندرك مثلا أن أفكار الناس عن الحق وعن الباطل قد طرأ عليها تغير إبان العصور التاريخية فتغيرت في جملتها إلى ما هو أحسن وما هذا سوى جانب واحد من جوانب الرقي. وهناك اتجاهات أخرى واضحة يسير التطور فيها نحو التقدم فقد ارتفع مستوى معيشتنا إلا من الناحيتين الأخلاقية والفكرية فحسب بل ومن الناحية المادية أيضًا فنحن الآن أفضل كساء وغذاء عما كان عليه أجدادنا منذ قرون ويتوافر لنا من أسباب الحياة أكثر مما تيسر لهم واتسع وقت فراغنا أكثر مما اتسع لهم. ولدينا آلاف من الشواهد على أننا بوجه عام أسعد حالًا في حياتنا في القرن العشرين بعد الميلاد

مادة محمية بموجب حقوق النشر

عما كنا عليه منذ خمسة آلاف عام مثلًا.

فما هو الذي حدث؟ وإذا تركنا جانبًا كل المسائل الدينية فماذا نعني بكلمة تاريخ؟ أليس هناك ثمة عبارة موجزة تعبر عن معني التاريخ؟ قد يجاب عن هذه الأسئلة إجابات عدة وقد تثار اعتراضات على الجواب الذي نثبته هنا. ولا شك أن لهذا الجواب حدودًا غير أنه يمكننا القول بإن "التاريخ" في أوسع معانيه من الناحية المادية هو تسجيل لقدرة الإنسان المتزايدة على التحكم في الطاقة. ونقصد بكلمة "طاقة" القدرة على أداء عمل أو بعث حركة وليس التحكم فيها، بمعني دفع الأشياء إلى الحركة أو إيقافها، سواء أكانت قطارات أم ساعات أم طواحين أم بشرًا. وهكذا نحتاج إلى الطاقة في كل عمل. وإنما تقوم حياة الإنسان على سعيه إلى الحصول على أكبر قدر ممكن من الطاقة والانتفاع به، وتقليل الضائع منها بقدر الإمكان. وكل وسيلة تكسبه طاقة أكبر أو تنقص من خسارته منها هي علامة تقدم ورقي ولها أهميتها في تاريخ العالم. وكل اكتشاف توصل به الإنسان إلى كيفية صنع الأشياء بل وكل ما نسميه اختراعًا مما يمثل مراحل متميزة من الرقي ليست مجرد حقائق – هامة إلى حد ما - لا صلة لها بالتاريخ، بل أن صلتها به وثيقة للغاية فاختراع الكتابة الهروغليفية مثلا والحروف الأبجدية والأرقام الحسابية والطباعة والبوصلة والفأس والعجلة والأبرة والآلة البخارية وورقة النقد، هذه كلها أشياء لها أكبر الأثر في مجري التاريخ العالمي، وأهميتها تتركز في أنها مكنت البشر من استغلال الطاقة واقتصادها.

ومن ثم يتضح لنا أن للطاقة أهميتها البالغة فيما نسميه "التاريخ الاجتماعي" بل ومن الضروري أن تبرز أنها لا تقل في أهميتها أيضًا للتاريخ الحربي والدستوري -أي التاريخ الذي يعني بالقوانين والمعارك ويؤرخ للملوك والجمهوريات. وقد يكون من المفيد أن نضرب لذلك مثلا استغلال الطاقة المتولدة من الفحم المحترق أو من المياه الساقطة، فهي لا تستغل كلها في أن تحفظ للآلات دورانها بل أننا نستغلها في نواحي أخري. وقد يبدو في الظاهر أنها تذهب سدي إذا استخدمت بقصد الحصول على طاقة أكبر فيما بعد. ويجري هذا النحو بأساليب تشبه إلى حد كبير تلك التي نراها تعمل عملها على نطاق واسع في التاريخ السياسي والاجتماعي.

1- فقد تستدم الطاقة في إبدال أجزاء جديدة من آلة بأخرى قديمة أو في إضافة أجزاء أخرى أكثر صلاحية لهذا العمل فنستنفد الطاقة في صناعة الجزء الجديد وفي تركيبه وضبطه، وقد يبدو هذا مجهودًا ضائعًا، كذلك الأمر عند ما توضع نظم جديدة

مادة محمية بموجب حقوق النشر

للحكم، فليس ذلك سوي إدخال تحسينات في آلة الحكم.

وكل تغيير تدريجي في وسائل الحكم هو بمثابة إحلال آلة جديدة محل أخرى قديمة. ومع ذلك، فإن مثل هذا الاستبدال نادر ويكاد يكون غير معروف على أي نطاق واسع، ذلك لأن قدرًا كبيرًا من النظام القديم يبقي عادة ويدخل في تركيب النظام الجديد حتى في أشد الثورات عنفًا.

2- وقد تبذل طاقة في تشحيم الآلات، وكل طاقة تستخدم في صناعة الزيت وتنقيته واستعماله تبدو جهدًا ضائعًا، ولكن استعمال الزيت يمكن الآلة من أداء عملها أكثر مما تستطيعه بدون هذا الزيت. وعلى نفس هذا النمط ينتفع الجهاز الحكومي بجهود عدد من الرجال هم بمثابة الزيت للآلة حتى يتسني لها أن تدور في سهولة ويسر. وعلى مر الزمن يزداد الانتفاع بالطاقة لصالح الأفراد الذين يعنيهم الأمر. وإن البنوك والأسواق المالية (البورصات) والصحف التجارية هي كلها بمثابة الزيت الذي بفضله تسير شئون العالم التجاري في مجراها بسهولة، كما تيسر بطريقة غير مباشرة شئون العالم الإجتماعي والسياسي.

3- وقد يحدث في بعض الأحيان أن تذهب طاقة الآلة سدى فتنطلق هاربة دون أن تؤدي عملًا نافعًا -وهي عادة على صورة طاقة حرارية وعندئذ يضع المهندس بعض الوسائد حول بعض أجزاء الآلة ليمنع تسرب الحرارة منها. كما تتطلب الآلات نوعًا من الحماية لكي يمنع عنها الصدأ ولمقاومة ما قد تحدثه لها قوة الهواء من أضرار. وفي كلتا الحالتين فإن ما يبذل من الجهد في حماية الآلات قد يبدو ضائعًا غير أنه على مدى الزمن يؤدي إلى كسب قدر من الطاقة أكبر مما استنفذ. ولهذا الغرض عينه تقام المباني سواء أكانت لحماية الآلات أم لحماية الناس. كذلك الحال في قوات البوليس والجيش والأسطول وغيرها من الهيئات فإنها تشبه عمليات الحماية والوقاية التي يقصد بها منع تسرب الطاقة هباء أو لتحول دون أن تحدث لها أضرار أو لتمنع المؤثرات الخارجية من أن تحول بينها وبين مواصلة عملها بانتظام.

وهناك نظرية هندسية أخرى لها أثر عميق جدًا في التاريخ إلا وهي نظرية الحمولة الكاملة أو الحمل الأقصي. ومعني هذا أن إدارة عدد من الآلات مجتمعة يتطلب طاقة مما تتطلبه إدارة كل آلة على حدة، لأن الآلات لا تعمل قط بأقصى قوتها في وقت واحد. ولنضرب لذلك مثلا النقل بالترام. فإن تسيير قطارات الترام جميعًا بوساطة محطة مركزية لهو أكثر اقتصادًا من تسيير كل منها على حدة بقوة خاصة بها. وهناك وفر كبير آخر علاوة على الاقتصاد الناتج عن إنشاء عدد أقل من الآلات،

مادة محمية بموجب حقوق النشر

ألا وهو إن العربات لا تعمل جميعها بأقصي سرعتها في وقت واحد. هذه النظرية مثل غيرها تطبق على نطاق واسع في التاريخ الاجتماعي ويرجع إليها الفضل في نمو المدن في الوقت الحاضر. كما أن المخازن الكبري وبيوت الأعمال العظمي والنقابات تدين لهذه النظرية بأهميتها. بل ولدرجة ما يمكن أن يرجع إليها بعض الفضل في وجود القوميات والامبراطوريات.

(ء) وهكذا تولد لدينا الآن فكرة رابعة عن التاريخ، فعندما نتكلم عن تاريخ العالم بأوسع معانيه نقصد وجود علاقة منظمة بين أحداث تبرز كيف تمكن الإنسان بالتدريج من أن يستخدم من الطاقة قدرًا متزايدًا، هذا مع بيان أسباب هذه الأحداث ونتائجها.

وتتصل بنظرية الحمولة الكاملة نظرية هندسية أخرى وهي "القصور الذاتي" والقصور الذاتي هو مقدرة الجسم على استمرار التحرك إذا ما بدأ في الحركة وليكن هذا الجسم قطارًا أو مؤسسة أو مدينة أو صناعة القطن في لنكشير أو الإمبراطورية البريطانية، وكلما عظم الجسم عن أن توقف حركته لأن إيقاف الأشياء يتطلب بذل طاقة وإذا ما كفت الأجسام فجأة عن الحركة نشأ عن ذلك ضرر، وإذا ما منعنا عن جسم متحرك القوة الدافعة له فإنه لا يكف عن الحركة في التو واللحظة كما أنه لا يصل إلى أقصي سرعته في لحظة إطلاق هذه القوة عليه مرة أخرى. والآلة المتحركة لا تسكن سكون الأموات إذا معنا عنها مورد البخار، كما أنها لا تقفز إلى الدوران في أقصى سرعتها إذا ما أعيد إليها موردها من القوة.

وإذا لم يتوافر لها القدر الكافي من الطاقة لدورانها فإنها تبطئ فترة ثم تقف، ولكنها لا تقف فجأة. وقد ظلت الإمبراطورية الرومانية تعيش ثلاثمائة عام بعد أن نقصت قوتها الدافعة نقصًا خطيرًا.

- التوجيه: ويجب أن نحدد معني كلمة "توجيه". قد يساعدنا على فهم معناها ذكر ما لا ينطوي تحتها وضرب بعض الأمثلة على ذلك. فالتوجيه نوجه الحصان ونضبط سيره أو نحدد في أي الاتجاهات يسير أو نوقفه، ولكنا لا تخلق الحصان ولا الطاقة التي يستخدمها في استجابته لتحقيق رغباتنا ثم إن الناس قد يستطيعون ضبط مجري مائي في انحداره من سفح تل من التلال ويبلغ تحكمهم فيه أنهم يحفرون له قناة ويبنون له شواطئها بالأحجار ليحولوا دون فيضانها على الجوانب أو يضعون الأنابيب لنقل بعض مائها أو كلها إلى حيث يريدون. ولكنهم لا يستطيعون خلق النهر نفسه بمعني خلق الماء ذاته، كذلك يستطيع الإنسان أن يتحكم في الإفادة من الطاقة

مادة محمية بموجب حقوق النشر

المتولدة من الفحم سواء في التدفئة أو في تسيير قطار بما يحمله أو في إدارة آلة تدير مصنعًا للنسيج، ولكنه لا يستطيع أن يخلق الفحم ذاته.

وهكذا إذا قلنا أن التاريخ توجهه وتحدده الجغرافيا فإنا لا نعني أن الإنسان مضطر بحكم الجغرافيا إلى أن يزيد في استخدام الطاقة شيئا فشيئا، ولكن معناه أن الجغرافيا تحدد إلى مدى كبير الطريق المعين الذي قدر للإنسان أن يسلكه في هذا الاستغلال.

3- الجغرافيا - ويجب أن نحدد أيضًا معنى كلمة "جغرافيا" وأن تحذر القول بأن العلم بالجغرافيا لا يحوي إلا المعرفة بأسماء الأماكن أو مواقعها أو أن نعرف عن هذه الأماكن بعض المعلومات الطريفة، فما هذا سوى جزء واحد بالغ الأهمية من بين أجزاء الجغرافيا، وهو الجزء الذي يماثل معرفة الأحداث في علم التاريخ ولكن لا يعدو أن يكون جزءًا، كذلك يجب أن يكون معروفًا أن الجغرافيا ليس معناها معرفة كل ما على سطح الأرض –وإذا كان كل ما على الأرض يتصل بالجغرافيا معرفة مواقع الأشياء كالمدن والجبال والأنهار بل والناس وأحوالهم وكذلك تعرف كيفية توزيع الأشياء على سطح الأرض وكيف ينتظم اليابس والماء وأين يسقط الأمطار بغزارة وأين ترتفع درجة الحرارة وأين تنخفض وأين تنمو أنواع الحياة النباتية على إختلافها وأين تهب العواصف وأين تهدأ الرياح وأين يعيش الناس بمختلف أجناسهم.

ولما كانت أكثر الأحوال الجغرافية هي نتيجة لظروف جغرافية أخرى فإننا كثيرًا ما نضمن دراستنا الأسباب والنتائج، فنعرف لماذا وجدت غالبية الأشياء التي نحن بصددها حيث هي، وكيف أثر وجودها أو انعدامها في حياة الإنسان، ولقد فرضنا عند التعرض لتعريف ماهية التاريخ أن الأحداث تحدث نتيجة لأعمال البشر فيما مضي ولكنا هنا في الجغرافيا نفرض أن الأحداث إنما تحدث بالشكل أو الأسلوب الذي تحدث به بسبب عوامل أخرى مسيطرة.

أما وقد تبينا معني هذه الكلمات الثلاث ألا وهي التاريخ والتوجيه والجغرافيا فإننا نستطيع أن ندرك أن هذا الكتاب قد وضع ليبين الطريق الذي يسر للإنسان استغلال الطاقة شيئًا فشيئًا وكيف أن طريقه قد حددته التوزيعات الجغرافية على سطح الأرض.

وهكذا تتكون لدينا فكرة عن المسرح العالمي الذي يمثل عليه البشر الآن

مادة محمية بموجب حقوق النشر

أدوارهم في الحياة.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

وقبل أن نمضي في تتبع أثر العوامل الجغرافية في مجري التاريخ فجعلت ظروفًا وحوادث معينة تتوالي بعضها أثر بعض في ترتيبها الزمني، يحسن بنا أن نبين أثر بعض العوامل الأساسية البارزة والمألوفة لنا إلى حد قد يكمن فيه خطر نسيان أهميتها القصوى، وذلك لأنها قائمة على الدوام ومألوفة لكل إنسان، فلم تعد تستلفت النظر، ولما كانت تعمل عملها في صمت وتؤثر أثرها على الدوام وفي البشر جميعًا - وفي جميع مراحل المدنية، أصبح من الصعب تصور الأثر العميق الذي تتركه في الحياة.

أولا- المكان:- من الواضح أن لكل حادث مكانا يقع فيه، وفكرة المكان وهي أبسط ما توحي به الجغرافيا، ترتبط بأبسط فكرة عن التاريخ ارتباطا وثيقا بل أن الأحداث التي تحدث في مكان معين أو في أقليم بالذات لها علاقتها المحددة في غالب الأحيان ببعضها بعضا وترتبط عادة فيما بينها بنوع ما من العلاقات ولا تتصل اتصالا وثيقًا بالأماكن التي تخرج عن نطاق حدوثها، وتؤخذ مثل هذه الحقائق في تتابعها على أنها تاريخ تلك البقاع أو الأمكنة. فنتكلم عن تاريخ انجلترا أو تاريخ فرنسا أو تاريخ اليونان أو تاريخ لندن وهذه طريق هامة إن لم تكن بديهية تحكمت بها الجغرافيا في التاريخ وسندرك أهميتها البالغة فيما بعد ولكنا نعلم أن تواريخ هذه البقاع وهذه الأقاليم لا يمكن أن تدرس بمعزل عن غيرها فإنا لا نستطيع الوقوف على جزء كبير من تاريخ لندن ما لم نكن على علم إلى حد ما بتاريخ انجلترا. وأن الإنجليز كانوا على اتصال بالفرنسيين لفترة طويلة من الزمان وأن تاريخ انجلترا قد تأثر بتاريخ فرنسا الذي تحكم فيه إلى حد ما. ومثل هذا القول يصدق على جميع التواريخ وكل منها يستند إلى حقيقتين: الأولى أن تاريخ الإقليم يمثل وحدة قائمة بذاتها لسبب أو لآخر. والثانية أن سكان الإقليم يتأثرون بظروف حياة سكان الأقاليم الأخرى قربت أم بعدت. ولكل منها وحدته الخاصة وهذه هي الظاهرة الغالبة في الأزمنة الحديثة ولكنه ينطبق أيضًا على التاريخ القديم.

ثانيا- الطاقة - وما دمنا قد قررنا أن التاريخ يعني زيادة معرفة الإنسان بطرق استخدام الطاقة وتوفيرها فإن التاريخ مسير بحكم توزيع الطاقة في صورها المختلفة وبحكم توزيع أي عامل قد يحول دون استخدامها أو ما قد يحفز الإنسان على زيادة الانتفاع بها.

وكل طاقة على سطح الأرض مصدرها الشمس أما في شكل حراري أو

مادة محمية بموجب حقوق النشر

ضوئي وربما في أنواع أخرى من الإشعاع وبفضل هذه الطاقة استطاع البشر أن يصنعوا الأشياء ويبعثوا بالحركة فيها، فهم يتسلطون على هذه الطاقة ويخضعونها لإرادتهم وتصبح جزءًا منهم، فهم يأكلون الخبز المصنوع من القمح أو من الحبوب الأخرى والتي ما كانت تنمو وتزدهر لولا حرارة الشمس وضوؤها، كما أصبح الحب دقيقًا مطحونًا بفضل استخدام الفحم الذي هو في الأصل نبات بما بفضل حرارة الشمس، وقد يطحن الدقيق بقوة مستمدة من المياه وهذه مصدرها الأمطار حين تنحدر على سفوح الجبال، وهي أصلا قد تصاعدت في صورة أبخرة من المحيط بفضل حرارة الشمس ثم حملتها الرياح إلى اليابس، وللشمس الفضل الأول في حركة الرياح، كما أن البشر قد يستمدون طاقتهم من لحم الحيوان الذي يأكل النبات في غذائه بعد نموه بفضل أشعة الشمس، وقد يستطيع البشر الاستغناء عن بعض الطعام وتدفئة أنفسهم بالنيران التي وقودها المواد النباتية كالفحم أو الخشب أو الزيت وهي جميعًا تستمد طاقتها الكامنة من الشمس. وقد يحاول البشر اقتصاد بعض الطاقة بارتداء الملابس والفضل في وجودها مباشرة أو غير مباشرة عائد إلى الشمس، ومن اليسير أن نتبين في جميع هذه الحالات الجوهرية وفي حالات أخرى كثيرة تكاد لا تقل عنها أهمية أن الطاقة التي يسيطر عليها الإنسان مستمدة من الشمس مباشرة وأن قليلا من التفكير يظهر أن الشمس هي المصدر الأول لذلك القدر الهائل من الطاقة التي نحتاج إليها في قضاء آلاف المطالب العديدة اللازمة للحياة اليومية ومن هذا يتبين أن توزيع الطاقة على الأرض هو في الجملة توزيع للطاقة الشمسية فالأماكن التي تقع مباشرة تحت الشمس تتلقى قسطا من الطاقة أوفر من تلك التي تستقبل الإشعاعات بميل أو بانحراف، وبعبارة أخرى أن الأماكن القريبة من خط الاستواء هي في مجموعها أوفر حظا من تلك التي تقع قرب القطبين ولعل هذه الحقيقة هي أهم حقائق التاريخ المالي وأبقاها، ومدي الاستفادة من هذه الطاقة متأثر بتوزيعات أخرى عديدة بدرجات متفاوتة وفي أزمنة مختلفة ولكن توزيع الطاقة يظل في جميع مراحل التاريخ هو الأساس الأول الذي تقوم عليه جميع الأحداث.

ويمكن أن نبين جلاء الأثر الذي تتركه هذه التوزيعات في تاريخ العالم إذا تصورنا الكرة الأرضية بما عليها من قارات ومحيطات كما نعرفها اليوم، تدور حول الشمس، وهي تدير لها دائما وجهًا واحدًا فقط، لو حدث مثل ذلك لتركزت الحرارة والضوء في نصف واحد من الأرض وبصفة خاصة في وسط ذلك الجزء من الكرة الأرضية وبطبيعة الحال لن يتلقى النصف الآخر شيئا من هذه الإشعاعات، ومن الواضح أن الحياة لن تصبح ميسورة كما هي حالنا اليوم، ولو أنها قد تصبح ميسورة في أماكن تستحيل فيها الحياة اليوم استحالة مادية. ثم إذا تصورنا الأرض تدور كما تدور الآن ولكن ميل محورها يختلف عن ميله في الوقت الحاضر فإن قليلا من

مادة محمية بموجب حقوق النشر

التفكير يرينا كيف تختلف الأحوال عندئذ اختلافا جسيما عن الظروف السائدة فعلا الآن، وإن كانت هذه فروضًا فيها تعسف ولكنها تؤكد كيف أن توزيع الطاقة في حالته الراهنة يتحكم في التاريخ.

وقد يقال أن التوزيع النظري للطاقة على سطح الأرض قد تأثر ببعض العوامل البشرية أو بما يعرف أحيانًا بالتعادل البشري[1]

غير أن هذا التوزيع للطاقة يتأثر

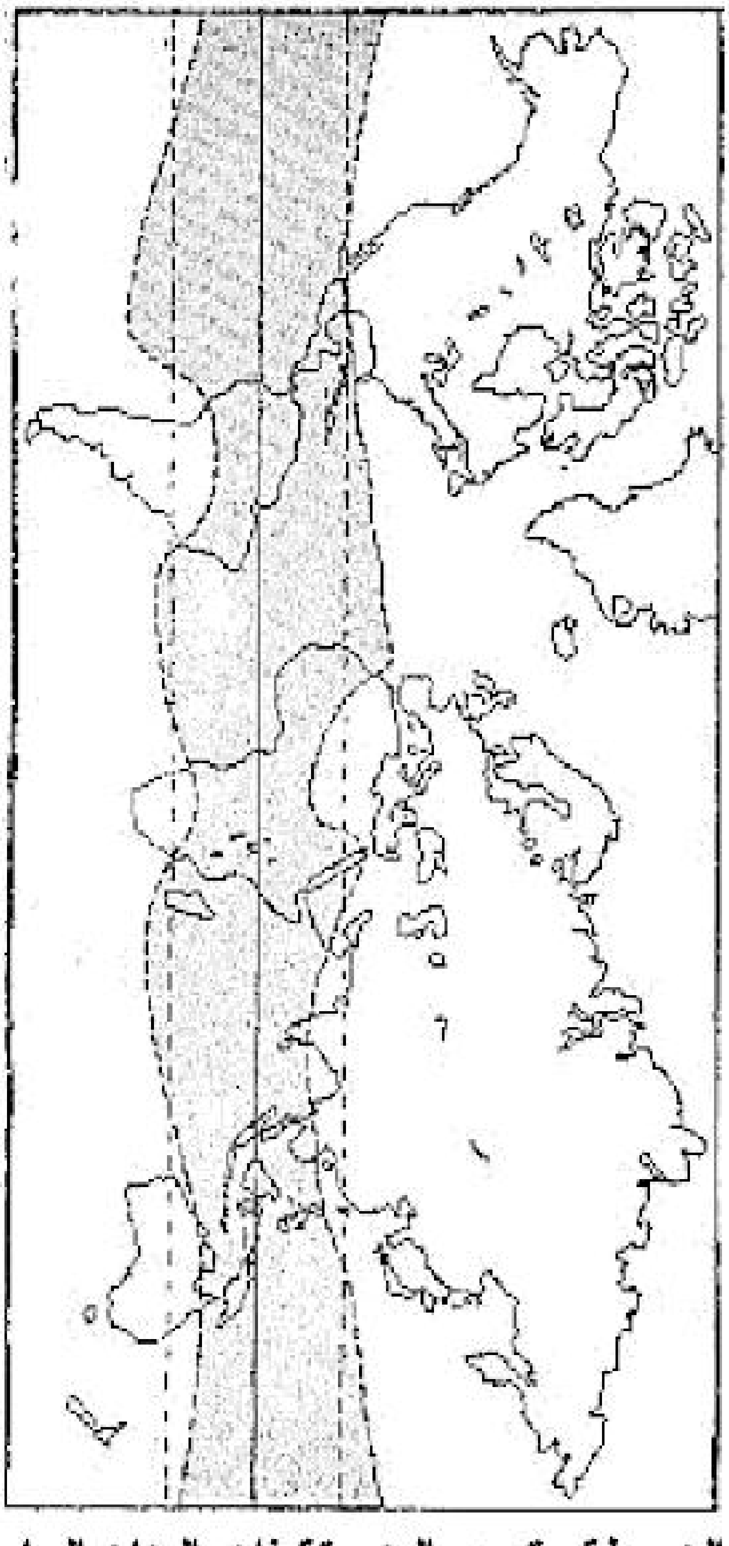

الخريطة رقم 1- المنصقة ذات المناخ الحار

تبين المساحة المظللة الأماكن التي لا تنخفض فيها درجة الحرارة إطلاقا عن فهر نهيت إيان السنوات العادية

إلى حد ما بعوامل أخرى مختلفة ومثال ذلك أن الأماكن القريبة من خط

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الاستواء تتلقي بصفة عامة قسطا من الطاقة أوفر من تلك التي تجاور القطبين ولكن هذا النقص في الطاقة لا يسير على وتيرة واحدة فبعض الأقاليم يتلقى فعلا قسطا من الطاقة أكبر من أقاليم أخرى تقع على مقربة من خط الاستواء بسبب اختلاف توزيع الهواء والتيارات الهوائية أو ما نسميها بالرياح.

(1) ومن الأهمية مكان ملاحظة التوزيع الفعلي للهواء ومن المعلوم أنه كلما ارتفعنا عن سطح الأرض نقصت درجة الحرارة أو بعبارة أخرى قلت الطاقة التي يمكن الاستفادة منها وهذا يتصل بحقيقة أخرى وهي أنه كلما ارتفعنا كلما نقص الهواء نفسه.

وهكذا تصبح الأبعاد الرأسية ذات أهمية بالغة مع أن هذه الأبعاد عينها قد لا تستحق الذكر لو أنها اتخذت على مقياس أفقي وذلك بسبب هذا النقص في الطاقة وحده، فالقمح مثلا وهو غذاء رئيسي يمكن أن ينمو في بريطانيا في منطقة تمتد شمالا إلى انفرنسشير (invernesshire) ولكنه لا ينمو في انجلترا نفسها على ارتفاع ألف قدم بسبب نقص الحرارة الكافية اللازمة لنضوجه لأن درجة الحرارة تنقص بمعدل درجة فهرنهيت واحدة لكل خمسين أو ستين ميلا حين نتجه نحو القطبين ولكنها تنقص بنفس المعدل لكل 200 أو 300 قدم يرتفعها الإنسان عن سطح الأرض.

(2) (ب) ولا يقل توزيع التيارات الهوائية أهمية عن عامل الارتفاع بل وقد يفوقه أهمية فإلى فعل الرياح ودفعها للتيارات المائية يرجع الفضل في أن انجلترا أدفأ مناخًا من لبرادور وأن الحياة ميسورة فيها عموما لأن تيارًا مائيا دفيئًا يأتي من الجنوب الغربي فيرفع من درجة حرارة المناخ فوق المعدل المعتاد لمثل هذه العروض وهي تتراوح بين 50و60 درجة بينما الحياة في لبرادور تكاد تكون مستحيلة بسبب تأثرها بالمياه المثلجة الآتية من الشمال المتجمد ولو قارنا خريطتين إحداهما تمثل الرياح والأخرى تمثل التيارات المحيطية لاتضح أن التيارات تدين بوجودها

مادة محمية بموجب حقوق النشر

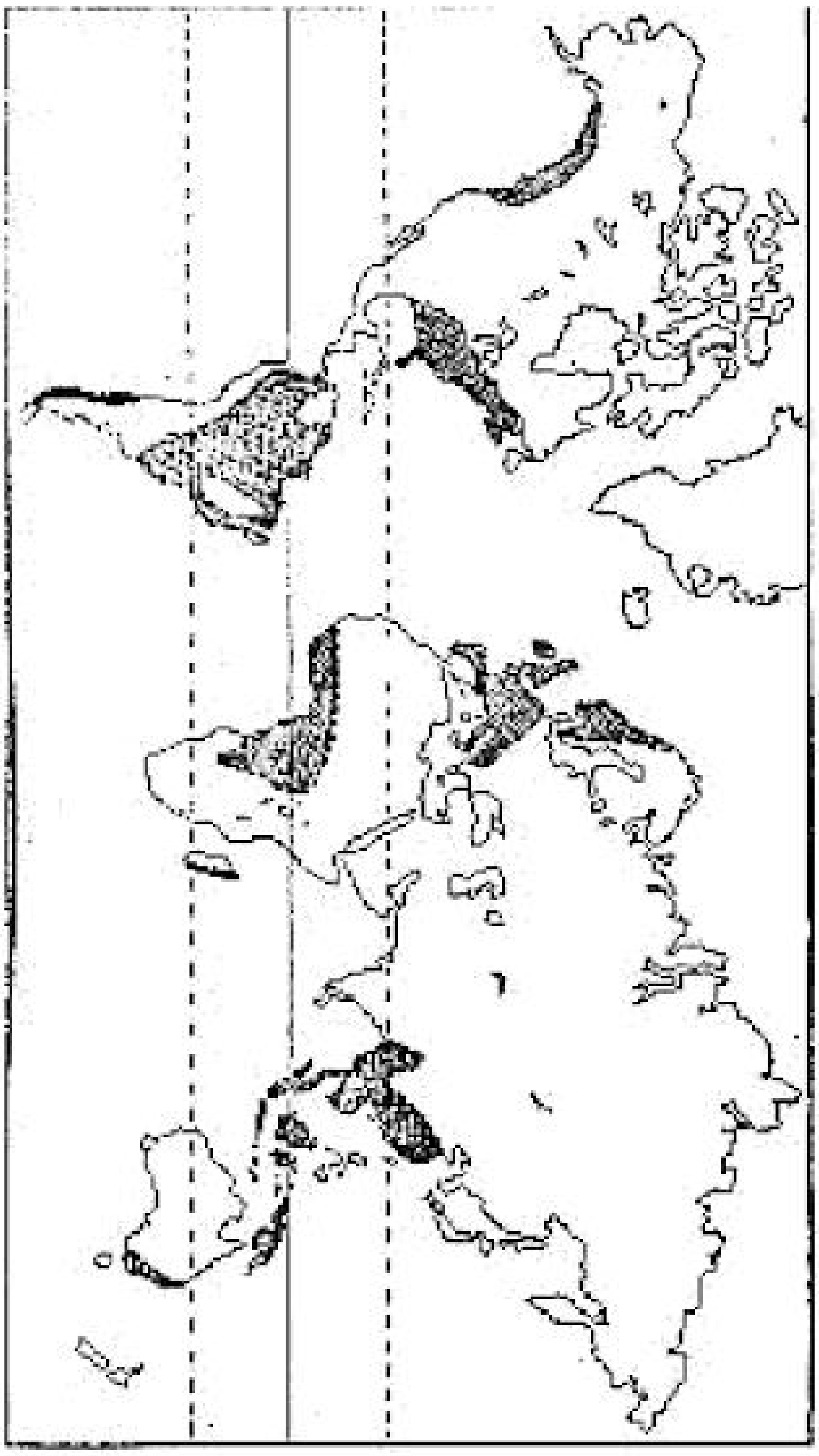

(الخريطة رقم 2)
المناطق المظللة يزيد فيها المطر عن عشر بوصات
توزيع مناطق الأمطار الغزيرة الدائمة طول العام

إلى الرياح، ولو أمكن مقارنة الخريطيتن بخرائط أخرى تمثل الحرارة لاتضح لنا أن نظام الرياح مسئول عن عمران أو جدب الأراضي التي تقع في نطاق 20° عرضية جنوبي الدائرة القطبية الشمالية.

ومعني هذا أن نظام الرياح قد تحكم تحكما فعالا في مجري التاريخ بطريقة أخرى، وقد سبقت الإشارة إلى اعتماد الإنسان في حياته على غذائه وحيثما يكون الإنسان فإنه يأكل ليعيش، وطعامه إما أن يكون مستمدًا من النبات وأما من الحيوان.

ولما كانت الحيوانات تعتمد آخِر الأمر في غذائها على النباتات أدركنا بوضوح الأهمية البالغة التي للمواد النباتية حقًا أن مجتمعات قليلة جدًا قد تعيش على الأسماك

مادة محمية بموجب حقوق النشر

وهذه بدورها تعتمد على أنواع خاصة من النباتات المائية أو على مخلوقات أخرى تعيش معتمدة على الأنواع النباتية الدنيا ولكن أغلب البشر يعتمدون في غذائهم على المنتجات النباتية التي تنمو بفضل المطر فإنه لا يكفي أن توجد الطاقة (الحرارة) بل أن وجود المطر أساسي حتى يتيسر للنباتات أن تنمو، أي أن الأمر لا يقتصر على وجود الطاقة فحسب بل على إمكان الإفادة منها، أي أنه متوقف على وجودها بالمظهر أو الشكل الذي يمكن الإنسان من استخدامها، والمطر هو الأبخرة الآتية إلى اليابس من المحيط، والرياح هي الناقل الوحيد لها فإذا هبت الرياح من البحر إلى اليابس تهيأت الفرصة للأرض التي تهب عليها لأن تستفيد من طاقتها فتصبح صالحة للسكني والحياة. أم إذا هبت من اليابس إلى البحار كانت الأراضي التي تهب منها جافة قاحلة لا يقبل الناس على العيش فيها.

يتضح مما سبق أن الظروف الجغرافية قد تحكمت في التاريخ تحكما حقيقًا لا مجازا، فهي التي جعلت بعض الأماكن تلائم بوجه عام حياة البشر أكثر من غيرها، ولكن الظروف الجغرافية تحكمت في التاريخ بمعني آخر أدق يمكن جماله بالقول بأنها وجهت التاريخ في مجراه توجيهًا فعليًا.

هذه الظروف وآثارها هي التي نحن بصدد دراستها.

-

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الفصل الثاني

الصحراء - بدء التاريخ - مصر

لقد رأينا مما سبق أن عوامل جغرافية تتحكم في التاريخ وتسيره بمعني أنه بفضل توزيع الحرارة والرطوبة أصبحت الحياة أكثر يسرا في بعض بقاع الأرض عن غيرها. وعلينا الآن أن نبحث الظروف الجغرافية الأخرى التي تحدد السبل التي سار عليها التقدم والرقي.

أولا- ينبغي أن نلاحظ أن الظروف الجغرافية هي التي خلقت الحافز الذي دفع الإنسان إلى التقدم ومتابعته، حقا أن الأقاليم الإستوائية بما توافر لها من الحرارة والرطوبة قد تيسر أسباب الحياة للحيوان إلى أقصى حد، غير أن من الحقائق الراهنة أن الإنسان في الأقاليم المعتدلة لا في الأقاليم الإستوائية قد بلغ الغاية في قدرته على التحكم في الطاقة. والتاريخ الجدير بهذا الإسم لا نجده في أفريقيا الإستوائية وإنما نجده في أوربا المعتدلة ويرجع هذا إلى عاملين جغرافيين ترجع أهمية كل منهما للأثر الذي يتركه في عقل الإنسان كما يتركه في جسمه.

(1) يأتي في المرتبة الأولى أنه ليس في العروض الإستوائية ما يحفز الإنسان أو الحيوان إلى بذل الجهود أكثر من أن يتناول الطعام الضروري الذي يحفظ عليه الحياة. وما ذلك إلا لأن الحياة ونعني بها الحياة الحيوانية ميسورة في هذه العروض، وأما في العروض المعتدلة، فكلما ابتعدنا عن خط الإستواء أصبحت الحياة أكثر صعوبة، ولهذا السبب إذا ما قدر للمخلوقات فيها أن "تعيش" وتستمر كان من الضروري لها بذل قدرًا أكبر من المجهود والنشاط.

وليس للهمج من سكان أفريقيا الإستوائية من حاجة إلى ارتداء لباس ما ولو كان غطاء من الجلد. ومثل ذلك في الغذاء فهو صعب المنال في أوروبا ويتطلب الحصول عليه جهدًا ونصبًا. وعلى ذلك فإنه حتى في ذلك الزمان الذي كانت الأجناس البشرية جميعًا على درجة من التأخر والهمجية نجد متوحشي أوروبا أرقي من متوحشي أفريقيا لا لسبب إلا لأن الحياة في أوربا تتطلب نشاطا ذهنيًا أكثر بسب

مادة محمية بموجب حقوق النشر

النقص في الطاقة الشمسية.

(2) ثم يأتي في المرتبة الثانية أن الأيام في الأقاليم الإستوائية تكاد تشبه بعضها بعضًا ولكن الأيام تختلف فيما بينها كلما اتجهنا شمالًا فلا تشبه بعضها بعضا.

وبحكم تتابع الفصول في العروض المعتدلة تصبح فيها أيام للصيف وأخرى للشتاء. وهي تختلف تبعًا لاختلاف كمية الطاقة الحرارية أو تبعًا لاختلاف مقدار الرطوبة في هذا الفص عن ذاك. وفي أي من الحالين فمن المؤكد أن يكون الطعام شحيحًا في فترة وموفورًا إلى حد ما في فترة أخرى.

ونشأ عن ذلك أن اليوم أصبح دورة الحياة في أفريقيا الإستوائية حيث يعزف الأفراد والأجناس عن النظر إلى المستقبل البعيد ويقصرون حياتهم على الزمن الحاضر وحده ولا يحتاطون للمستقبل بينما السنة هي دورة الحياة في الأقاليم المعتدلة ومن ثم عني الناس بالتفكير في أمر مستقبلهم.

هاتان المجموعتان من الظروف الجغرافية، شأنها شأن كثير من الظروف الجغرافية إن لم يكن أغلبها، واضحتان وضوحًا يخشى معه أغفال شأنهما أو التقليل من خطرهما في تاريخ العالم، ولكنهما تعملان في إصرار وإلحاح ولهما صفتا الاستمرار والتأثير على مدى الزمان في كل رجل وكل امرأة وكل طفل في كلا الإقليمين. هاتان الظاهرتان بمفردهما، أو بالاشتراك مع غيرهما، تفسران اختلاف تاريخ الإقليمين، "تقدم حضارة أوروبا" وجهالة "القارة المظلمة".

وتبدو أهمية هاتين الظاهرتين في خلق الحافز الذهني الذي يدفع بالإنسان إلى توفير الطاقة في المناطق التي نطلق عليها اسم الأقاليم المعتدلة، إذا ما قدر للحياة فيها أن تبقي مستمرة، فإن ارتداء الملابس يحول دون إشعاع الطاقة الحرارية ويوفرها لتستغل في غرض آخر والعروض التي تتأثر بالتغيير الفصلي تتطلب أن تحدد أوقات معلومة للبذر والحصاد وأوقات معلومة للأزهار والإثمار ويصبح من الضرروي إمكان توفير الطاقة الغذائية من الأيام السمان للإنتفاع بها في الأيام العجاف.

والإنسان يستهويه أن يجد أقل قدر من المقاومة، سواء في الأقاليم الاستوائية أو في الأقاليم المعتدلة ولكنه في واحدة منها يجد دافعًا أو حافزًا للعمل قد يصل به إلى درجة الحاجة التي هي أم الاختراع بينما ينعدم عنده هذا الحافز في الإقليم الآخر.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

ولما كان الحافز إلى التفكير في اقتصاد الطاقة يكاد يكون معدومًا في العروض الاستوائية، فإنا نجد فيها أجناسًا بشرية أكثر انحطاطا من غيرها من السلالات التي تسكن المناطق الأخرى حتى بعد أن تقادمت العهود على ارتقاء هذه السلالات الأخيرة وارتفاعها عن مستوى معيشة الحيوان. ومن ثم يجب ألا ننتظر من هذه السلالات تقدمًا، وبالتالي يجب ألا ننتظر منها تاريخًا، أما في العروض المعتدلة فبفضل وجود هذا الحافز واستمراره نرى الأجناس توالي تقدمها وتضيف لنفسها قوة على قوة. وهذا يبين لنا السبب الذي يفسر الحقيقة التالية وهي أن تاريخ العالم هو في معظمه تاريخ المناطق المعتدلة التي تقع على وجه التقريب بين خطي عرض 30° و60°.

ثانيا- ويبرز أثر هذا الحافز كاملا في بعض الأماكن أكثر من غيرها تبعًا للظروف الجغرافية. ولما كان الإنسان يتحكم في الطاقة ويسيطر عليها سواء يتناول الأطعمة ذاتها كما هو الحال في البيئات البدائية أو باستخدام الفحم كما هو الحال في بيئة القرن العشرين، ففي استطاعته أن يسخر هذه الطاقة بطريقتين: أما بالإفادة منها بتسخير طاقة أكبر منها، وأما بتبديدها دون فائدة، بل وقد يسخرها في تدمير وسائل الإنتفاع بها. وقد يتبع الطريقتين في وقت معًا إلى حد ما، وقد يبذل مجهوده الخاص لينتفع بمجهود غيره وفي هذه الحال تزيد قدرة الفرد ولكن لا تزيد كمية الطاقة التي يتحكم فيها مجموع البشر.

ومن البين أن أقدر الجماعات على توفير الطاقة هم أولئك الذين يعيشون في وئام وسلام، والفضل في تضامنهم مع غيرهم مبعثه تزايد قدرتهم على توفير الطاقة، الأمر الذي ييسره لهم اتحادهم، ولا ينتظر أن تظهر مثل هذه الجماعات لأول مرة في الأقاليم الاستوائية لا لمجرد انعدام الحافز الذي يدفع بها إلى التفكير في المستقبل ولكن لأن الأفراد والقبائل لا تعيش في سلام بسبب ما تفرضه عليها الطبيعة من انحطاط في مستوى حضارتها –نعم قد تعيش قبائل - لأن الفضل في وجودها يرجع إلى عوامل غير جغرافية - ولكن القبيلة، في غير المناطق الإستوائية تنمو وتصبح نظامًا أكثر تعقيدًا.

بل حتى في المناطق التي يتوفر للإنسان فيها هذا الحافز يحتاج أيضًا إلى نوع من الحماية كي يتيسر له الرقي. وقد تأخذ الحماية أشكالا شتى، فقد يحمى الرجل نفسه وقد تحمي الأمة نفسها باستخدام جزء من طاقتها في الدفاع، ومن الواضح أنه من الأفضل لو أمنت أمة الدفاع عن نفسها دون تنفق في هذا طاقتها كأن تتكفل ظروفها الجغرافية فتدفع عنها شر العدوان. ويجب أن نتصور أن مثل هذه الجماعة

مادة محمية بموجب حقوق النشر

أو القبيلة أو السلالة سرعان ما تخرج من مرحلة التأخر والهمجية وهو الدور الذي تكفلت فيه الطبيعة بحمايتها. وقد تكفلت الظروف الجغرافية بحماية أمم مختلفة في عهود مختلفة وفي أحوال مختلفة، غير أن أنواع الحماية تتغير تبعًا لتغير الأحوال وما يعد حماية في عصر من العصور قد لا يصبح حماية كافية في عصر آخر - ويعد درعا واقيًا في أي عهد من العهود كل ما يحول دون تدخل القبائل أو الأجناس الأخرى. وتعد من أنواع الدفاع الخاصة تلك الظاهرات الجغرافية التي يتعذر على الناس تخطيها أو عبورها في يسر، ويزيد الدفاع مناعة كلما زادت الطاقة التي يبذلها الإنسان في هذا السبيل.

وتقوم بهذا الدور ظاهرات جغرافية كثيرة كالأنهار والبحيرات والجبال والسفوح الشديدة الانحدار والمستنقعات، ولها جميعًا أثرها في حماية المجتمعات الصغيرة، ولكن الظاهرات الكبرى التي لحمايتها أثر في مجري التاريخ العالمي هي الهضاب الواسعة التي تبلغ حدًا من الإرتفاع يتعذر معه نمو النباتات، أو الصحراوات الترامية الشديدة الجفاف لدرجة تفقدها كل قدرة على الإنبات، أو البحار التي لا يتيسر للإنسان أن يتخذ فيها مقرًا. ويقتضي التغلب على كل من هذه العقبات بذل الجهود بالإضافة إلى أنها تكاد تفتقر إلى أول مقومات الحياة البشرية. ولابد للإنسان أن يكون على قسط كبير من المدنية قبل أن يصيب نجاحًا في التغلب عليها.

ولهذا هيأت في العصور الأولى حماية كاملة للمجتمعات التي احتضنتها. لقد كانت هذه الظاهرات مجهولة مخيفة وكان البحر أكثرها غموضًا ورعبا.

ثالثا - كما يجب أن نذكر أثر هذه الظروف الجغرافية باختصار ونوضحها كعوامل موجهة للتاريخ، ذلك أن مجرى التاريخ بأسره، بما في ذلك بداياته، قد تأثر بصفات الأفراد والأجناس وميزاتهم، وبعض هذه الصفات يرجع إلى عوامل جغرافية وبعضها الآخر لا يرجع الفضل فيه إلى مثل هذا العوامل ولكنا نأخذها قضبة مسلمة، كما أن أحداث التاريخ بكل ما أستتبعته من نتائج وحدوثها في الأزمان التي قدرت لها - بل أن مجرد حدوثها وحده - كل هذا يرجع إلى إرادة الإنسان ورغبته في العمل. ولو حرم الإنسان قوة الإرادة لما حدثت هذه الأحداث إطلاقا. غير أن أعمال البشر من ناحية أخرى تتكيف طبقًا لمقتضيات الظروف المحيطة بهم كما تتكيف حسب تكوين أجسامهم. والاتجاهات التاريخية الكبرى لم تتأثر إلى حد كبير بالصفات المميزة للأفراد، لأن الظروف الجغرافية على مر العصور أقوى أثرًا من عبقرية الأفراد، وأبعد مدي من المميزات الجنسية ما لم تكن هذه المميزات وليدة عوامل جغرافية وهكذا بدأ التاريخ حيث بدأ بفضل هذه الظروف الجغرافية.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

ومن الواضح أن معلوماتنا عن صور الحضارات الاولى ناقصة وفي أغلب الأحيان قليلة، ومن الطبيعي ألا يكون لدينا سجل للتقدم التدريجي الذي حدث خلال العصور الطويلة قبل أن يخرج للإنسان من ظلمات الوحشية، وأقصى ما نأمل في البحث عنه هو بقايا هذه الحضارات القديمة، تلك البقايا التي صمدت للدهر طويلا لأنها متينة في تكوينها، ولا شك أن أنها بقايا حضارة متقدمة إلى حد ما.

ومن الطبيعي أيضًا ألا تصل الحضارات الأولى التي سمعنا بها إلى ما وصلت إليه إلا بعد عهد قد يقدر بعشرات الآلاف من السنين لأن نمو هذه الحضارة كنمو الأشجار بطئ في مبدئه لو قورن بنموها فيما بعد حين يتيسر للشجرة أن تنمو في أجزاء كثيرة منها، ويجب أن نذكر أنه حتى في تلك الأزمان التي نبدأ في اعتبارها أزمانًا تاريخية سبقها تاريخ بدائي على نطاق ضيق كان يجري منذ زمان سحيق وقد يمتد فيزيد طولا عن عمر التاريخ كله ولكن أيضًا يجب أن نذكر أنه قليل الأهمية محدود النطاق من وجهة نظر التاريخ العالمي.

هذا البطء في النمو هو نتيجة طبيعية لعوامل فرضتها الجغرافيا. ولما كانت الظروف الجغرافية هي عوامل موجهة أو ضوابط وليست في حد ذاتها قوى دافعة فهي تستغرق زمانًا طويلا لتجعل أثرها محسوسًا. وبمرور الزمن تبدو نتائج هذه الضوابط أكثر وضوحًا وربما أفعل تأثيرًا وقد أثرت بمضي الوقت بطريقتها الخاصة لأن أحوالا معينة كانت سائدة، أو لأن أحوالا أخرى غابت عن الميدان فمثلا يستغرق شخص أو جنس من الأجناس في اكتشاف حقيقة ما وقتا أطول مما يستغرقه تلقينه إياها، ولهذه الحقيقة مزايا، فاكتشاف الإنسان لحقيقة معينة يدل على أنه قد وصل إلى المستوى العقلي الذي يمكنه من الإفادة بذكاء من اكتشافه لها، وليس هناك أشد خطرًا من فرض حضارة زائفة أي حضارة منقولة على هذا الجنس إذأن ضررها يزيد على نفعها.

ولتخليص ما سبق ذكره نقول أن أول بوادر الحضارة ظهرت حيث الحياة سهلة ميسورة إلى حد ما، وحيث دورة الحياة ليست اليوم أو النهار، وحيث يتحتم على الإنسان أن يعمل من أجل حاضره ومستقبله. وأكثر من هذا نجد الأجناس الأولى المتحضرة عاشت في بعض الأماكن في جماعات أكبر نسبيًا من الأسرة ومن القبيلة ولكنها مجتمعات صغيرة بحيث تكون في حد ذاتها وحدة تشعر بكيانها وذاتيها. هذا على أن يتوافر لها قسط من الحماية ضد عدوان الأعداء ممن تفوق قدرتهم على التخريب قدرة هؤلاء على الإنشاء. وحين تبدأ معرفتنا بهذه الأجناس، لابد وأن تكون قد استغرقت زمنًا طويلا حتى نجحت في الخروج من مرحلة الهمجية التي كانت

مادة محمية بموجب حقوق النشر

تعيش فيها.

هنا نرى مصر تتمتع بمناخ بديع - فهي وإن خلت من الأمطار فأحاطتها الطبيعة بصحراء على كلا الجانبين إلا أنها تستمتع بمورد من الماء العذب - وهو على دوامه ذو دورة فصلية، وقد لا ندرك هذه الظاهرات المتناقضة إلا إذا درسنا جغرافية مصر، فلمياه النيل مصدران - أحدهما إقليم المطر الاستوائي الدائم حيث يستمد النهر ماءه بعد أن تنظمه مجموعة من البحيرات والمستنقعات فيخرج منها ذا تصرف ثقل معه نبذبة المستوى خلال العام كله، والمصدر الآخر مرتفعات الحبشة - وهي بلاد تمتاز بموسم مطير إذ يسقط عليها في أواخر الربيع وأوائل الصيف طوفان من الأمطار فتنحدر من المرتفعات إلى السهول ثم من السهول إلى الأراضي الجافة في شمالها.

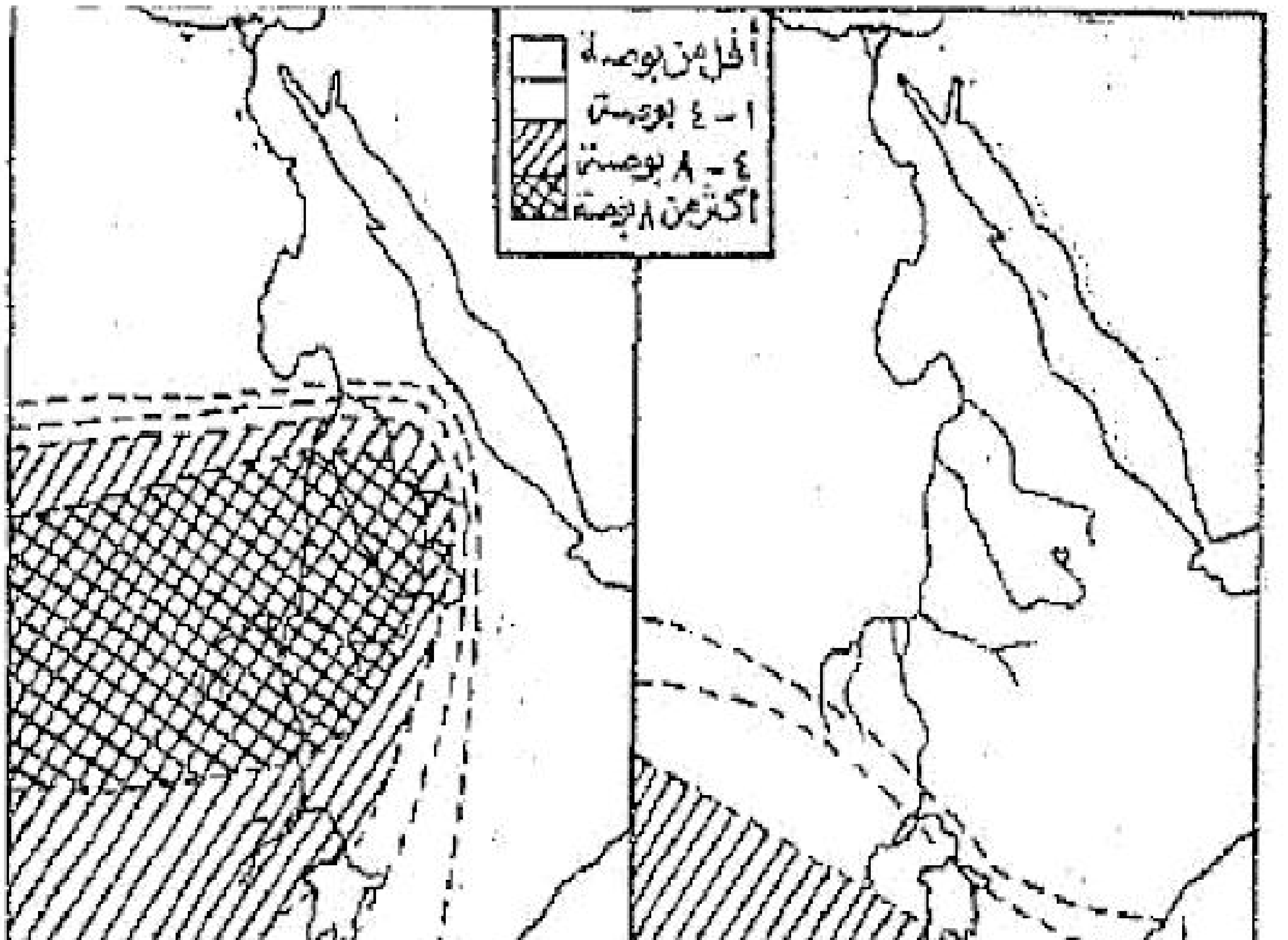

يوليه يناير

الخريطة رقم 3

سقوط الأمطار في حوض النيل

تبين الخريطتان كيفي أن الروافد الجنوبية تستمد ماءها صيفًا وشتاء بينما تستمد والرافد الشرقية كميات كيرة من الماء خلال شهور الصيف فقط.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

وما مصر سوى دلتا النيل وواديه الأدني إلى مسافة سبعمائة ميل من مصبه فهي شريط بمحاذاة مجري النهر العظيم حتى البحر- يرويه النيل وتحميه الصحراء من كل جانب وقد وقفت حاجزًا لا يسهل عبوره - وفي حقيقة الأمر فإن هذه الحماية أكمل مما تبدو- فإن النيل في مجراه الأدني يجري خلال أراض من الحجر الجيري حفر فيها واديه في أول الأمر، ثم ملأه بعد ذلك بما جلبه معه من طمي نحتته الفيضانات المتوالية من جبال الحبشة، وهو يجري في الجنوب ابتداء من موقع أسوان الحديثة فوق طبقات من الحجر الرملي ترتكز على كتل كبيرة من الصخور الصلبة، والنهر هنا لم يكون واديا حقا لمسافات شاسعة بل اقتصر على عدد من الخوانق تفصل بينها الجنادل وقد لا يبعد شاطئ النهر عن الصحراء الجرداء أكثر من مسافة متر أو مترين لا تصلح لأن ينمو فيها شئ في الواقع وليس فيها ما يغري على الإقامة، وهكذا عزلت مصر من الجنوب تمامًا كما عزلت من الشرق والغرب.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

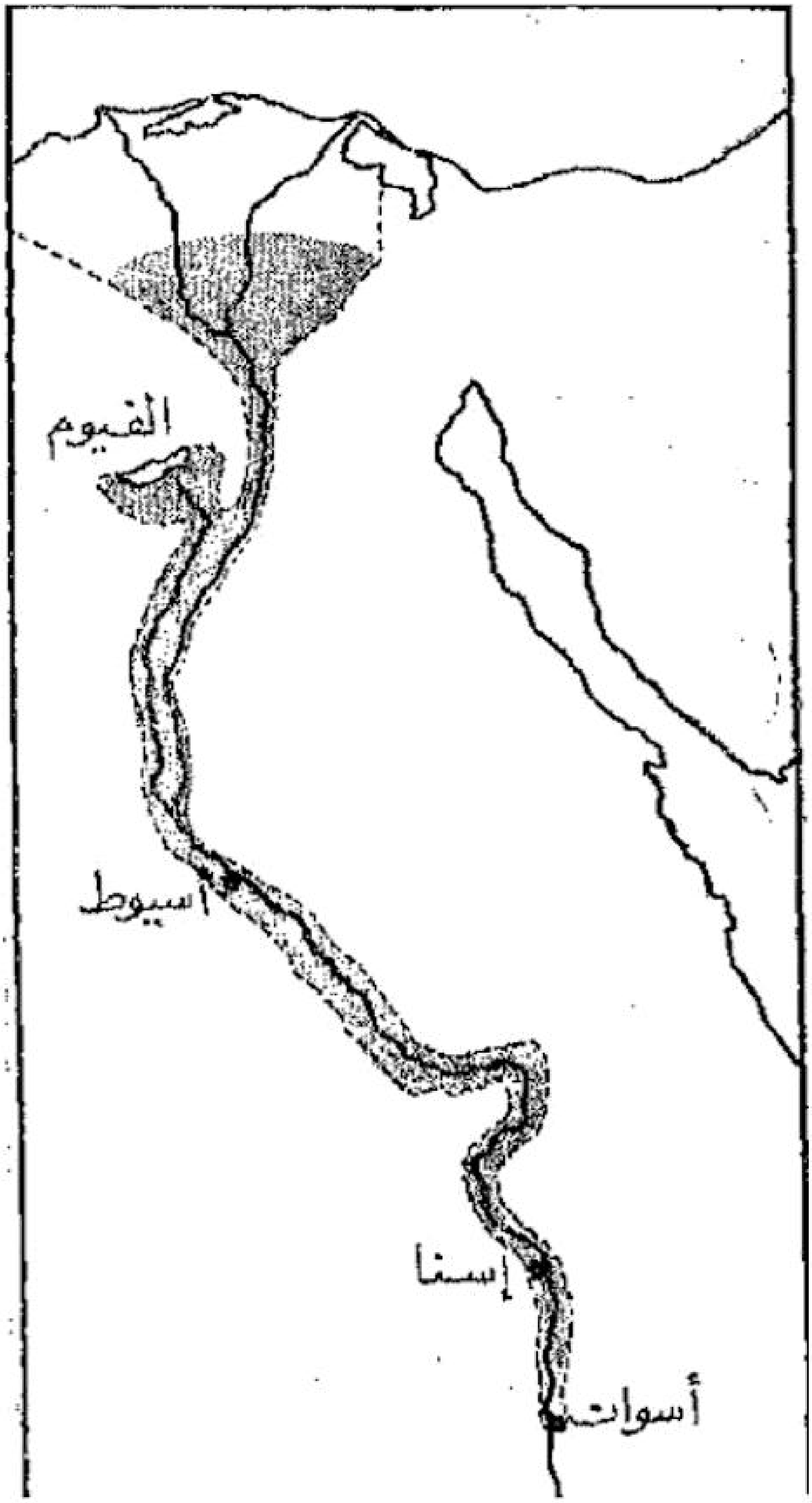

الخريطة رقم 4
مصر

مادة محمية بموجب حقوق النشر

وفي الشمال يوجد البحر. وفي الأيام الخوالي كان البحر مجهولا ولذا وهب لمصر حماية كاملة شأنه شأن الصحراء تمامًا، ولا نجد مثل هذه الظروف موفورة في جهات أخرى توائم فيما بينها نشأة حضارة مبكرة وترعاها بدرجة لا تداني.

ويتبين من المعلومات الضئيلة الأولى عن تاريخ مصر الطويل أنه كان يسكنها جنس بشري لم يكن على أية حال في ادرك الأسفل من الهمجية والتأخر. وما كاد هذا الجنس يظهر حتى اختفي ليحل مله جنس آخر أرفع سأوا في حضارته.

غير أننا لا نعرف عن هذا الجنس الأخير إلا قليلا، وقد أقامت هذه الشعوب في وادي النيل وعاشت هادئة مطمئنة زهاء ألفي عام قبل أن يظهر على المسرح أولئك الذين يطلق عيهم اسم قدماء المصريين.

ولما بدأ المصريون يسيطرون على البلاد حوالى عام 4500 قبل الميلاد اقتبسوا بدورهم حضارة أولئك الذين سبقوهم في سكناها، وارتفعوا بمستواها في شئ من السرعة حتى أنه لم تحل سنة 3700 قبل الميلاد حتى كان ملوك الأسرة الرابعة يحكمون البلاد جميعا من الجندل الأول إلى البحر وبلغوا درجة من التنظيم مكنهم من تشييد الأهرامات العظيمة.

ثم حدث إنحطاط ملحوظ - كما يحدث عادة في غير مصر- ويبدو أن الأداة الحكومية قد أصابها البلي فضعفت قوة الحكومة المركزية خلال عهود أسرات عديدة، ثم انقسم وادي النيل إلى أقاليم ومقاطعات مختلفة بحكم طوله وضيق اتساعه، وأخذ حكامها يستأثرون بالسلطان على حساب الملك واتجهت الأمور شيئًا فشيئًا نحو الفوضي مما أخر تقدم البلاد، إلا أن الحضارة المصرية ظلت تتابع سيرها الحثيث، وإن كان بطيئًا خصوصًا في النواحي التي تميزت بها، والتي اعتمدت على تحسين وسائل الري. ونظرًا لأن مقر الحكومة المركزية إبان هذه العصور الأولى كان يقع قرب رأس الدلتا دائمًا، كان من الطبيعي، حين تنشب ثورة من الثورات في مقاطعة صغيرة أن تأخذ في نشر نفوذها في المقاطعات المجاورة لها، ولابد وأن تكون القوة الناشئة أو الثائرة بعيدة ما أمكن عن مقر الحكومة المركزية.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

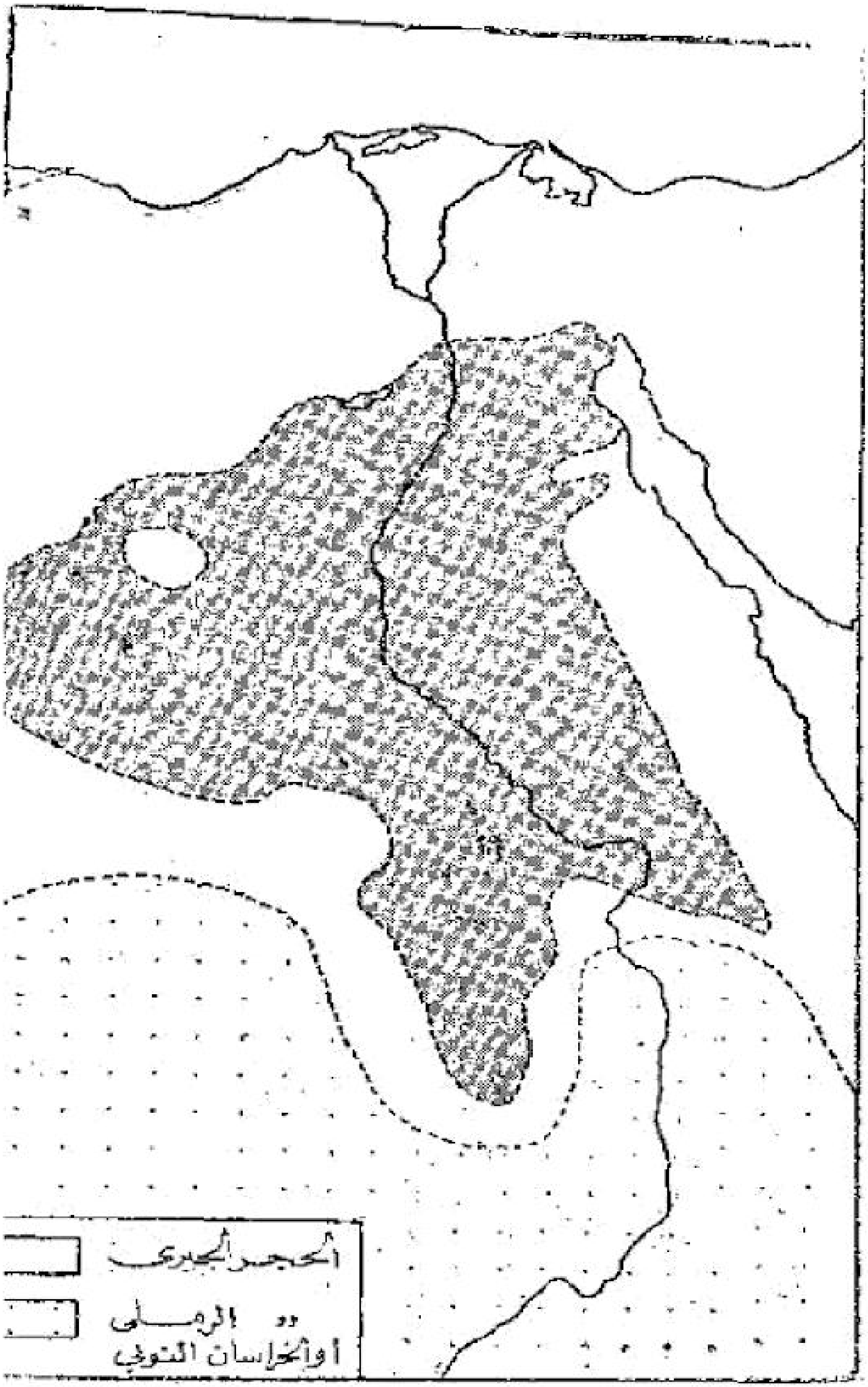

جولوجية القطر المصري

يبدأ وادي النيل الأدني حيث نبدأ طبقات الحجر الجيري

مادة محمية بموجب حقوق النشر

ولما استعادت مصر مجدها حوالى عام 2500 قبل الميلاد تحت حكم الأسرة الثانية عشرة كانت طيبة - لا هرقليوبوليس أو منف- هي القلب في جسم الحياة المصرية. وعم الرخاء القطر المصري تحت حكم هؤلاء الملوك وأقيمت مشروعات الرى الكبرى وزادت الثروة القومية حتى ليمكننا أن نقول أنها بلغت دورة تقدمها في ذلك الحين.

ثم ضعف الحكم الوطني مرة أخرى وكان من الطبيعي أن ينتقل الحكم أخيرًا دون غزو بالمعني المعروف من أيدي الوطنيين إلى ملوك الهكسوس، وهم قبائل من الرعاة جاءوا إلى مصر، أما لأن الدلتا قد اجتذبهم إليها بما فيها من خيرات وإمالأنهم لجأوا إليها اضطرارًا يبحثون عن مأوي يقيهم شر أعدائهم. وقد اتخذت هذه القبائل بصفة خاصة حضارة البلاد حضارة لها ثم اندمجت بالسكان الذين عاشت بين ظهرانيهم، ثم قام أمراء طيبة بفضل بعدهم عن مركز سلطان الهكسوس في الدلتا، وانتزعوا السلطة من أيدى هؤلاء الحكام وطردوا جزءًا من السكان من أرضهم ودانت لهم زعامة البلاد.

ولأول مرة في تاريخ مصر يطرد منها غزاة، وإن كانوا قد دخلوها مسالمين، ولأول مرة في تاريخها تبدأ مصر غزوًا خارجيًا حوالى عام 1600ق.م. تحت أمرة ملوك أسرة ملوك الأسرة الثامنة عشرة ممن تسموا بأسماء تحتمس وامنحوتب. واستمر هذا الغزو حتى امتدت السيطرة المصرية شمالا إلى جبال أرمينية.

وهكذا يظهر التاريخ المصري ثلاث فترات بلغت مصر فيها ذروة المجد، وتعد عصورًا ذهبية بارزة ليس فقط لأن التقدم التدريجي في حضارتها كان أوضح ما يكون في هذه الفترات وإنما لأنها أضافت إلى كفايتها ما اقتصدته في الطاقة بفضل مركزية حكومتها، وإلى هذا الاقتصاد يرجع بعض الفضل فيما أحرزته البلاد من تقدم سريع آخر. وتعتبر الفترة الذهبية الثالثة أرفع ذروة وصل إليها مجد مصر في نواحي الثروة والرخاء المادي. ثم أخذت الحضارة المصرية والقوة المصرية في الهبوط على الرغم من مجئ الرعامسة فيما بعد وقامت ظروف أخرى ليست كلها جغرافية قللت من أثر العوامل الجغرافية وهي التي ظلت تتحكم أو تسود الموقف حتى هذا العصر، وبدأت ظروف جغرافية أخرى تحدث أثرها. ولما تم لسنحاريب هزيمة ملوك مصر لم تكن هذه سوى بداية سلسلة من الفتوحات خضعت مصر معها تحت حكم أمم مختلفة كالأشوريين والبابليين والفرس واليونان والرومان والعرب والأتراك والبريطانيين. ولم تر مصر الاستقلال منذ عام 330 ق.م[2]

مادة محمية بموجب حقوق النشر

وليس تقدم الدولة المصرية راجعًا إلى العبقرية الموروثة لسكانها فإنه على الرغم من الحماية التي كفلتها الطبيعة للبلاد نجد جنسين إن لم يكن ثلاثة أجناس منفصلة قد استوطنت البلاد على التوالي في عصور تاريخية وكان كل منها على جانب رفيع من الحضارة بالنسبة للعصر الذي عاش فيه ولكنه بلغ في مصر مستوى من المعيشة أرفع مما بلغه سكان البلاد الأخرى في نفس الوقت.

لقد كان التقدم وليد الظروف الجغرافية التي ذكرناها آنفًا بما توافر لمصر بصفة خاصة من حماية ممتازة. لقد غزيت البلاد ولكن يجب ألا يغيب عن الذهن أن الغزوات كانت قليلة في عددها وفي طول مدتها بالنسبة لطول التاريخ المصري ومن المحتمل أنه تصل فترة استقلال مصر إلى أربعة آلاف عام لم يشهد المصريون خلالها عدوًا غازيًا لهم في عقر دارهم، (أي بما يزيد بألف وخمسمائة عام من المدة التي تفصل زماننا عن زمانهم) وساد حكم الملوك الوطنيين طوال تاريخهم فيما عدا فترة لم تتجاوز بضع مئات من السنين، حقًا اعترى الملوك الوطنيين الضعف والإنحلال بعد عام 2500 ق.م وحل محلهم لفترة ما حكام من أصل أجنبي، غير أنه بعد أن طردهم ملوك الوجه القبلي من المصريين وهم الذين لم يخلعوا عن عروشهم لاعترافهم بسيادة ملوك الهكسوس عاشت مصر نحو ألف عام، وهي امبراطورية مترامية الأطراف، قبل أن تدول دولتها وتحل محلها حضارات ساهمت مصر بقسط كبير في خلق الحافز الأول الذي بعث بها إلى الوجود.

ولو قارنا تاريخ مصر بتاريخ دول العالم الأخري لوجدنا أنه ما من واحدة منها عاشت نصف ذلك الزمان بدون غزو أو اجتياح. وأن طول العهد الذي لبثته الدولة المصرية إنما يرجع الفضل فيه إلى استحالة الغزو الأجنبي أو احتمالاته، وهذا بدوره يرجع إلى الحماية التي كفلتها الصحراء -تلك الحماية التي سمحت بالنمو الطبيعي الحثيث لنواحي الحضارة المختلفة دون أن تضطرب بسبب تدخل عناصر أجنبية من حين إلى آخر.

ولما سقطت مصر من برجها العالي استمرت الأحوال الجغرافية تؤثر في تاريخ البلاد - وليست الصحراء في حمايتها بأقل شأنًا من غيرها إذ اعتاد سكان مصر أن يثقوا في حمايتها مدى أربعة آلاف عام فعجزوا عن أن يدفعوا العدوان. ولما أخذت العوامل الجغرافية تنتج مدنيات أرفع شأوا أصبحت مصر كالقصبة المرضوضة كما تنبأ بذلك النبي العبري[3]

مادة محمية بموجب حقوق النشر

.

وتدل المظاهر الخاصة التي تمتاز بها الحضارة المصرية بوضوح على أثر العوامل الجغرافية ومن الطبيعي أن يدرك سكان وادي النيل مقدار الطاقة التي يوفرها لهم ري الأراضي، غير أن الأمر لم يقتصر على إدراكهم الجانب المادي للحياة فإن مسلكهم العقلي يبدو أكثر وضوحًا بطريقة أخرى- فمن البين أن الفكرة الجديدة، فكرة الاستعداد للمستقبل، قد سيطرت على عقول المصريين بوحي التغيير الفصلي، حتى أن أهم الآثار التي تركوها كانت قبورًا ومعابد، معابد يعرف الأحياء بوساطتها متى يتوقعون الفيضان ومتى تح بهم التحاريق ومتى تجئ أيام البذر وأيام الحصاد- وقبورا يحفظون فيها أجسامهم الرقيقة مدى عصور لا حصر لها- وكان تراثهم الأدبي الأكبر "كتاب الموتي" مما يؤكد لك أن المصريين.. أمة وهبت نفسها لتدبير الحياة المقبلة.

الفصل الثالث

المستنقعات والمراعي - بابل وآشور

رأينا أن أول تباشير المدنية ظهرت في مصر وهي بلاد حبتها الطبيعة ومنحتها موفرة في الماء والدفء. وليس من المؤكد معرفة أي عصر من العصور بدأت مصر ما يصح أن نسميه تاريخًا، ولكن مما لا شك فيه أنه قبل أن يحل عام 5000ق.م كان سكان مصر على قسط كبير من الحضارة وكانوا قد قطعوا شوطا في المدنية بعد بهم عن مرحلة الهمجية البدائية، ومن المؤكد أنهم توصلوا إلى استخدام الأحجار في بناء المقابر إن لم يكن في بناء المنازل أيضًا.

ولنلق الآن نظرة على الخرائط لنرى إن كانت هناك أقاليم أخرى، لها مثل هذا التاريخ العريق وتشابه أحوالها أحوال مصر. ولنترك جانبًا العروض القريبة من القطبين وكذلك القريبة من خط الاستواء إما لعدم توافر الطاقة الكافية لتقدم الحضارة وإما لانعدام الدافع الذي يحفز الإنسان إلى استغلالها. أما وقد عرفنا أن الصحراء

مادة محمية بموجب حقوق النشر

تكفل الحماية للبلاد التي تحتضنها فمن الطبيعي أن نوجه نظرنا إلى المنطقة الصحراوية لنرى إن كانت تحوى أقاليم أخرى ذات موارد من الماء تهئ لها الخصب. فإلى الغرب من نهر النيل على طول الصحراء الكبري لا نجد إقليمًا يمكن أن يقارن بمصر، أما إلى الشرق منه فإن النطاق الصحراوي يتجه شمالا نحو قلب آسيا وهو منطقة جافة لأن الرياح حين وصولها تكون قد تخلصت من رطوبتها بمرورها فوق الجبال المحيطة بهذه المناطق. ولكن الصحراء هنا ليست بالقسوة التي عليها الصحراء المحيطة بمصر، وليست الأحوال المناخية ملائمة لبناء الحضارة كما هي الحال في مصر إذ أن مصر فذة في مزاياها. نعم قد نجد في بقاع أخرى أرضًا محمية وتخضع للتنوع الفصلي، موفورة الماء والحرارة ولكنك لن تجد إقليما تجتمع فيه كل هذه المزايا مثل اجتماعها في مصر إذ أنها انفردت بهذا كله بين أقاليم العالم.

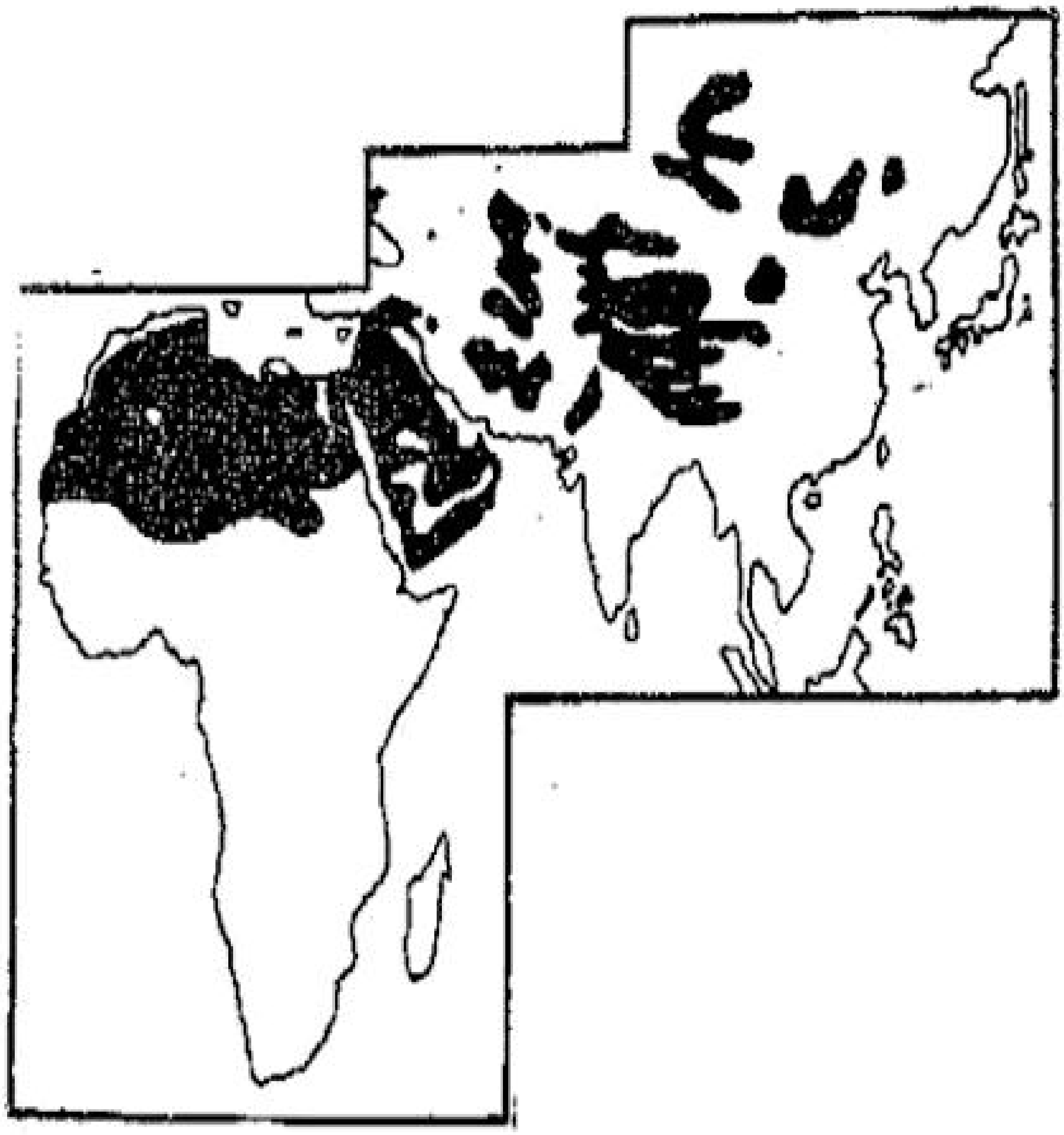

الخريطة رقم 6- النطاق الصحراوي في العالم القديم

وليس هناك نهر كنهر النيل بمنبعيه أحدها في إقليم المطر الدائم والآخر في إقليم المطر الفصلي. ولكنا نجد نهري دجلة والفرات يجريان من منطقة الأمطار

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

image
not
available

image
not
available

image
not
available

قصرت، وحينما هبطوا إلى السهول اقتبسوا الحضارة التي وجدوها هناك وانفصلوا عن ذويهم في الجبال وفقدوا خصائصهم بالتدريج وأندمجوا في سكان السهول الآخرين.

وبعد ذلك برزت دولة أشور من بين المراعي الشمالية الغربية. ويرجح أنها قامت على شاطئ دجلة الأوسط الذي كان خاضعة لبابل وأن تأسيسها كان على يد البابلين أيام توسعهم، ولما كانت أشور بعيدة عن بابل وتفصلها عنها مساحات شاسعة بعضها مراع وبعضها يكاد يكون صحراء اتجهت نية أشور إلى الاستقلال وفرض سيطرتها على البلاد الخصيبة الواقعة قرب سفوح الجبال. وحين بدأت بابل تسقط تحت أقدام الملوك الأجانب كانت أشور قوة يحسب حسابها.

وطالما كانت بابل مركز الحضارة كان تاريخ ما بين النهرين في جملته تاريخ سلم وهدوء إذ اعتمد أهلها على الزراعة والتجارة ولم تكن بهم حاجة كبرى أو حافز قوي يدفع بهم إلى الغزو والفتح واستمر الحال على ذلك حتى خضعت بابل لحكم الأسرات النازحة من التلال الشمالية الشرقية ثم اختلفت الأحوال حينما سيطرت آشور وسادت.

ويرجع السبب إلى الظروف الجغرافية، فإن آشور لا تصلح للزراعة إلا في بقاع صغيرة. ولم يتيسر لها التوسع في زراعتها. أما بابل فالأراضي فيها مسطحة وهي تعلو قليلا عن مستوى مجاري الماء. ولذلك أمكنها في يسر حفر القنوات التي استخدمت في أغراض الري والتجارة. ولكن الأمر مختلف في أشور إذ الأنهار في معظم حالاتها تنخفض عن مستوى الأرض انخفاضًا يضيع معه معظم فائدتها.

حقًا أن الجزء الصالح للزراعة من أراضي أشور كان مضرب الأمثال في الخصوبة إلا أنه أصغر من يعول عددًا كبيرًا من السكان. ولم يتوافر له من الحماية أكثر مما هيأتها له أراضي المراعي المحيطة به. وهذه ليست صحراوية إلا في الجنوب الغربي فقط. ولهذا وقع عبء الدفاع عن أشور على كواهل أهلها أنفسهم - وهم وإن لم يكونوا من البابلين إلا أنهم اقتبسوا حضارتهم من حضارة بابل التي كانت تسبق زمانهم، وكانوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم بنجاح ومن الأفضل طبعًا أن تقوم بالدفاع حكومة مركزية قوية، ولهذا قامت في أشور منذ أول الأمر حكومة ملكية موحدة مقرها نينوي ثم نمت بغزة القبائل المجاورة لها التي لم تبلغ بعد درجة تدانيها في فنون الحرب، ولم ينجل عام 1400ق.م. حتى خلعت أشور عنها رباط الولاء الذي كانت تدين به لبابل، بل وأكثر من هذا فإنها استطاعت أن تغزو بابل نفسها في

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image not available

image
not
available

image
not
available

وكان من الميسور إلى حد ما الانتقال من بابل والاتجاه شمالا على طول وادي الفرات ثم الهبوط إلى وادي نهر العاصي بين سلسلتي جبال لبنان الداخلية ولبنان الساحلية ثم الانحدار إلى سهل الليطاني أو البقاع إلى أعالي الأردن مخترقين سهل إسرائيل أو مرج ابن عامر مارين بما جدو التي كانت ملتقي الجيوش في هذا العالم الصغير كما يسهل اختراق أرض فلسطين على طول امتداد سواحل البحر المتوسط ثم على طول الشريط الصحراوي الضيق إلى أرض مصر وقد كان اختراق الطرف الشمالي لبادية الشام إلى واحدة دمشق رأسًا أقصر طولا ولكنه أقل يسرًا ولذلك كان يوفر بعض الطاقة عند التجار الذين بلغوا قسطًا من الحضارة والمدنية. وكانت دمشق هي نقطة الابتداء لمن أراد اختراق الصحراء شرقا وهي نهاية المطاف أو المرسى الأخير لمن قصد عبور الصحراء غربًا إلى الجزء الأكبر من سورية. وأيا كانت الجهة التي جاءوا منها فقد كانوا جميعًا يمرون بمرج ابن عامر وفلسطين.

ولم تبرز أهمية هذا الطريق فجأة بل نمت شيئًا فشيئًا تبعًا لنمو البلاد التي تربط بينها وتبعًا لازدياد أهميتها. وينبغي ألا نتصور أن حركة النقل التي جرت على هذا الطريق كانت تعادل ما يجري الآن على أي طريق من طرق الريف الإنجليزي ومع هذا فقد كان هذا الطريق هو الذي تجري عليه أكبر تجارة شهدها العالم في ذلك العهد.

ومن الطبيعي ألا يكون تاريخ البلاد التي تمر بها هذه الطريق عريقا في القدم كتاريخ مصر أو العراق. ذلك أن بينها وبينهما عهدًا بعيدًا. ولابد أن تكون الحضارة قد بلغت شأوًا عظيمًا في كليهما وانتشر نفوذهما قبل أن تتصل إحداهما بالأخرى. ومع ذلك يبدو أن اتصالهما المبكر كان أمرًا عارضًا ومن قبيل الصدفة البحتة إذ أرسل ملوك الأسرة الرابعة في مصر حوالى عام 3800 ق.م. كما أرسل الملك سارجون الأكادي في بابل الحملات والبعوث من كلتا الدولتين بقصد استغلال مناجم النحاس في صحراء سينا واقتطاع الأحجار المناسبة لأعمال النحت والتماثيل. وعلى مر الزمن سارت التجارة في هذا الطريق كما سيرت الجيوش حتى أنه لمدى ثلاثة آلاف عام التي كانت مصر والعراق خلالها أهم الأقاليم العالم اكتسبت سواحل بلاد الشرق الخصيبة (الليفانت) درجة من الأهمية لا تتناسب وحجمها الطبيعي. ولما كان هذا الموطن موطن الفلسطينيين والإسرائيليين هو المعبر الموصل بين امبراطوريتي العالم القديم فلا عجب إذن أن يظهر سكانه كثيرًا على مسرح التاريخ على الرغم من أن فلسطين نفسها صغيرة في مساحتها لا تتجاوز مساحة مقاطعة ويلز في بريطانيا حتى أن النبي إيليا -كما جاء في الكتاب المقدس - عبرها من جانب إلى آخر في يوم واحد.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

image not available

بملك زمام الأمر ثم تبعها صور من بين المدائن الكثيرة المبعثرة على طول السواحل ومن هاتين المدينتين كلت تخرج السفن إلى البلاد المتأخرة على بعد المسافة بينها، وربما كان دافع الفينيقيين في أول الأمر البحث عن بعض الأسماك الصدفية التي كانوا يحتاجون إلى كميات كبيرة منها لصبغ الملابس الملكية باللون الأحمر الأرجواني الذي اشتهرت بصناعته مدينة صور.

ومن الجائز أن البحث عن الأصباغ لم يكن هدفهم الوحيد، فالتجارة، من أي نوع كانت، محببة إلى نفوسهم ما دامت تجزى عن المتاعب التي بجشمونها ولكي يتابع الفينيقيون أعمالهم التجارية في أمن وهدوء أنشأوا المستعمرات على طول سواحل البحر المتوسط من طرف إلى آخر ولم يأت عام 1000 ق.م حتى كانت مجموعة الحلف الفينيقي تكون وحدة يعمل لها حساب وإن كانت ضعيفة الروابط فيما بينها حقًا، ملك الفينيقيون بقاعًا صغيرة في مساحتها لأنهم كانوا في قراره نفوسهم تجارًا لا يحتاجون إلى مساحات واسعة من الأرض الخصبة ليزرعوا ما يحتاجون إليه من الغذاء ولكنهم كانوا يفضلون شراءه بما تدره عليهم منّهم من كسب وفير.

لقد حكمت صور وصيدا وقرطاجة مناطق صغيرة فيما حولها ولم تكن دولتهم قطرًا واحدًا مندمجًا كدولة مصر أو بابل، بل كانت عبارة عن مستعمرات متفرقة على سواحل البحر المتوسط الذي كان يربط فيما بينهما، وكون من وحدتها دولة تختلف في طبيعتها ونظمها عن أي دولة سبقتها في الوجود.

ولم يكن حكم الفينيقيين وحده هو البدعة الجديدة، بل إنهم كانوا أنفسهم يمتازون بسجايا ذات طابع جديد فرضته عليهم ظروف بيئتهم، ولابد أن سلوكهم العام كان يفرض على الغير احترامهم والخضوع لهم بدليل بقاء أسواق الهمج المتأخرين مفتوحة لهم زمنًا طويلًا، والتجارة في جوهرها مهنة ودية، ومهما تقدم المصريون والبابليون فقد بذهم الفينيقيون في هذا المضمار، وفي الحق كانت الشجاعة من أخص صفاتهم ولم يكونوا كالأشوريين مجرد مقاتلين، كما تركت فيهم الأسفار الدائمة وسط البحار المتلاطمة وعلى ظهور سفنهم الصغيرة صفة التعلق بالحرية إلى جانب ميزة الشجاعة الفريدة التي تكلمنا عنها مما مكنهم من أن يقفوا بالمرصاد ليدفعوا عن أنفسهم محاولات أشور المتكررة للقضاء عليهم.

وبالرغم من فشل أشور في القضاء على التجارة الفينيقية فقد سببت هذه لمحاولات لها عجزًا وشللا، وقد ضعف بضعفها الفينيقيون في فينيقيا الأصلية منذ القرن السادس ق.م حقًا لم تسقط بلادهم نهائيًا حتى اضطرتهم الظروف إلى مواجهة

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

الاستقلال ليس فقط عن كل شعب أجنبي عنها بل وعن الدويلات اليونانية الأخرى، وقد ازداد هذا الشعور قوة من جراء الاختلافات الكبرى بين مختلف الأجزاء حتى بين الأجزاء المتجاورة في كتلة الأراضي اليونانية الأصلية، مما نشأ عن اختلاف الظواهر الطبيعية وما يستتبعها من تنوع في المناخ، وهكذا خارج كل دولة شعور قوي بوحدتها وشخصيتها وكان من نتيجته أن التاريخ لم يسجل قط قيام إمبراطورية يونانية.

لم يك هذا أثرًا عابرًا، فحوالي عام 1000 ق.م، طرأ تغيير على طراز الحضارة الذي ساد البقاع التي نطلق عليها الآن اسم بلاد اليونان، إذ غزتها قبائل من الشمال واعترى حضارتها تأخر ظاهري لفترة من الزمان لم تدم طويلا لأن الدم الجديد ساعد على سرعة نمو طراز الحضارة الإغريقي الخالص وعمل على بلوغه درجة عالية من النضوج والازدهار، وليس هنا مجال التعرض للكلام عن هذا التطور، بل ينبغي أن نلاحظ أن أثر الظواهر الجغرافية قد اختلفت قليلا واختلفت توزيع الدويلات، وكل ما حدث من تغييرا إنما يرجع إلى اختلاف الأثر الذي طبعته العوامل الجغرافية على عقول اليونانيين الذين أصبحوا - دون وعي منهم - أكثر دراية بأساليب اقتصاد الطاقة والجهد، وهكذا انتشرت الحضارة اليونانية الحديثة في الجزر وأشباه الجزر المبعثرة في بحر إيجة بنفس الطريقة التي انتشرت بها الحضارة اليونانية السابقة وإن كانت هذه أسرع في انتشارها لأن اليونانيين أصبحوا أكثر دراية بالبحر وإدراكا لقيمته كطريق للاتصال بين الأجزاء المختلفة، ويبرز في تاريخ اليونانيين سواء في العهود المتقدمة أم المتأخرة، ذلك الدرس الذي لقنتهم الطبيعة إياه وهو أن البحر وسيلة دفاع وحماية بكل ما ينطوي عليه هذا الدرس من معان ظاهرة في الحاضر كما كانت في الماضي.

ويصور لنا التاريخ الداخلي لهلاس - أي الوطن اليوناني - مدى سيطرة الظروف الجغرافية، حقا قامت دول يونانية جديدة فأصبحنا نسمع عن إسبرطة وعن أثينا بدلا من أرجولس وطيبة، وجرى التاريخ في مجراه المنتظر فرأينا تطورًا مستمرًا متمرًا متعدد الألوان يلم بالوحدات الصغرى بسبب اختلاف مصالحها خلال الثلاثة أو الأربعة القرون التي برزت فيها اليونان أمام أبصارنا، فلم يقر قرار لأي وحدة منها إلا قليلا، وتردد نفس الشعور من عدم الاستقرار في نفس كل مواطن في كل وحدة، وأحس بضرورة تقدير حقوقه الفردية، وفي هذا كله يتضح الدور الأساسي الذي يلعبه البحر فإن التاريخ الداخلي لهذه الدول اليونانية- أو دل اليونانيين بمعنى أعم - ما كان إلا صراعا بين مجموعتين من الأحلاف بين مجموعة أحلاف دول المدن التي قامت على اليابس وبين مجموعة الأحلاف الأخرى التي كان البحر

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

قط على البحر بينما دانت لاسبرطة السيادة البحرية لبضع سنوات بعد سقوط أثينا، ثم استعاد الأثينيون السيادة البحرية لحد ما وشاركتهم فيها دول المدن اليونانية في آسيا الصغرى كما شاركهم فيها الفينيقيون وهؤلاء كما سبق أن رأينا قد انطووا تحت جناح فارس، وظلت دول المدن اليونانية الأخرى في آسيا الصغرى نفسها في حالة من الضعف والانقسام على الرغم من أنها كانت تتطلع في بعض الأحيان إلى البلاد اليونانية الأخرى طالبة معونتها فكان رجاؤها يتحقق أحيانًا، ويخيب أحيانًا غير أن حكومات المدن اليونانية ظلت منقسمة على بعضها بعضًا فحالف بعضها ملك فارس وزودوه بالمساعدة مما مكن الفرس في فترتين من فرض نوع من السيطرة على جميع البلاد الإغريقية وإن تعذر القول بأنهم مارسوا هذه السيطرة فعلاً.

ولا بد من توافر شرطين أساسيين لإمكان قيام وحدة تضم جميع اليونان وهما السيطرة الكاملة على البحر والسيطرة الكاملة على البر، لأن بلاد اليونان بطبيعتها تتكون من جزائر وأشباه جزائر، ولن تتحد الجزر إلا بالسيطرة على البحر وفي هذه الحالة تظل أشباه الجزر معرضة للهجوم من البر، فإذا قامت إلى جانب السلطة البحرية قوة برية منظمة اضطرت الدويلات المختلفة في بلاد اليونان إلى الاعتراف بسلطة واحدة عليا لفترة من الزمان، أي إذا اجتمعت إلى القوة البرية أخرى بحرية قامت دولة لها من السلطان ما يجعلها تسود كل بلاد اليونان وتحكم لعهد قصير كل أنحاء العالم المعروف آنئذ والذى كان له شأن يذكر في ذلك الزمان. وتبين الفتوحات المقدونية التي قام بها فيليب والإسكندر مدى الأثر الذى تتركه بعض الشخصيات البارزة في مجرى التاريخ - وعلى كل حال فإن العوامل الجغرافية - وإن لم تتضح هنا تمامًا كما وضحت في حالات أخرى - ذات أثر محسوس في كل حال وقد يزداد أثرها وضوحًا لو أننا تذكرنا أن العوامل الجغرافية تعمل عملها بالتأثير في عقول البشر.

كان العالم المعروف للبشر وقتئذ - أي للمتحضرين من البشر - عالمًا صغيرًا قوامة مصر والعراق واليونان وما بينهما - أما فيما وراء هذه الدائرة فتقع بلاد وبحار يعرفها في شيء من الغموض من يقطنون داخل الإطار الصحراوي الجبلي فإن سكان الجبال من أهل ميديا وفارس هبطوا في الشرق إلى أرض العراق ثم زحفوا منها غربًا حتى حالت البحار والمرتفعات الإغريقية دون تقدمهم، وقد لفت هذا الزحف أنظار اليونانيين وعلى الأخص يوناني أوربا إلى وجود قوة متحضرة عظمي إلى الشرق منهم، ومن ثم بدأ الإغريق يوجهون أبصارهم إلى الشرق ويدركون شيئًا فشيئًا أن التقدم شرقًا ميسورًا بل هو أسهل نسبيًا من زحف الفرس غربًا وإن أسطورة العشرة آلاف جندي توحى بأن غزو الشرق ممكن وأن الإغريق يتفوقون على أهل

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

image
not
available

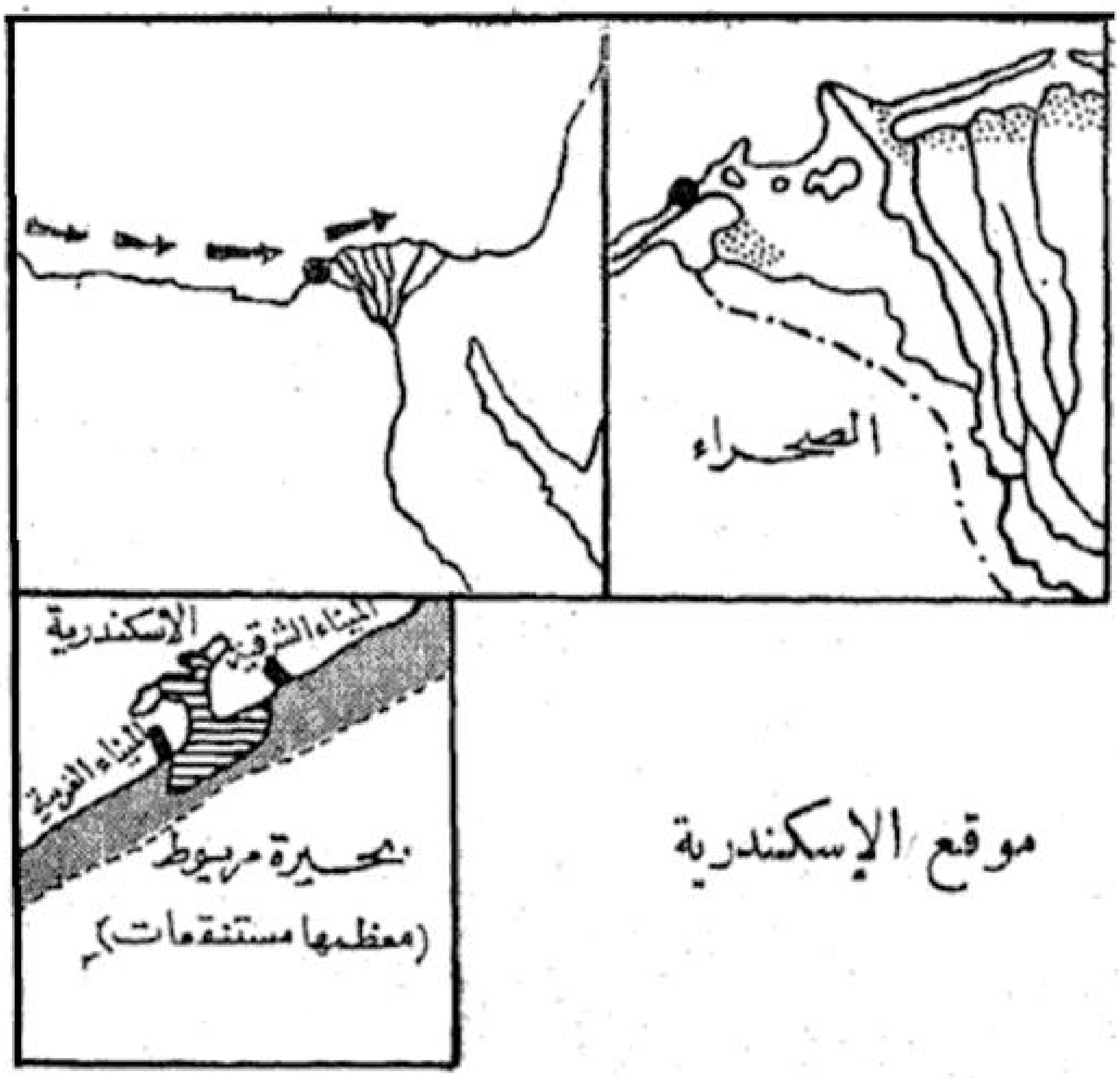

الخريطة رقم 9

1- تقع الإسكندرية في المدخل الغربي لوادي النيل – لتتجنب الرواسب التي يقذف بها النهر ثم يحملها تيار البحر إلى الشرق.

2- كما تقع بين المستنقعات والصحراء على أول بقعة من الأرض الصلبة حيث تهيئ الطبيعة ميناء صالحًا.

3- وبنيت على جزيرة (اتصلت منذ ذاك الأوان بالكتلة اليابسة) تستند في ظهرها إلى بحيرة – فهي بهذه الظروف تستمتع بموقع حصين جدًا فهي في أحسن الظروف مواءمة للدفاع عنها.

كما تدين أنطاكية أيضًا بنموها وبأهميتها لوقوعها في البر بين مرتفعات الشمال والجنوب حيث يمهد نهر الفرات الطريق إلى بابل، وقيامها لا فضل فيه للطريق البحري ولكنه وثيق الصلة بالطريق البرى الذى يتبعه المسافر من بيزنطة

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

image
not
available

بها - وتتهيأ فيه الفرصة لنوع ما من الحضارة لتنمو وتزدهر- وهو كتلة كبيرة في مساحتها فلا تستطيع السيطرة عليها أقوام لم تبلغ من التنظيم قدرًا محترمًا وتسودها في الوقت عينه عناصر الوحدة والتشابه فلا يسهل تجزئتها أجزاء صغير، غير أن طرفها الشرقي والغربي يتميزان عن الوسط فهما يضمان.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image not available

image
not
available

image
not
available

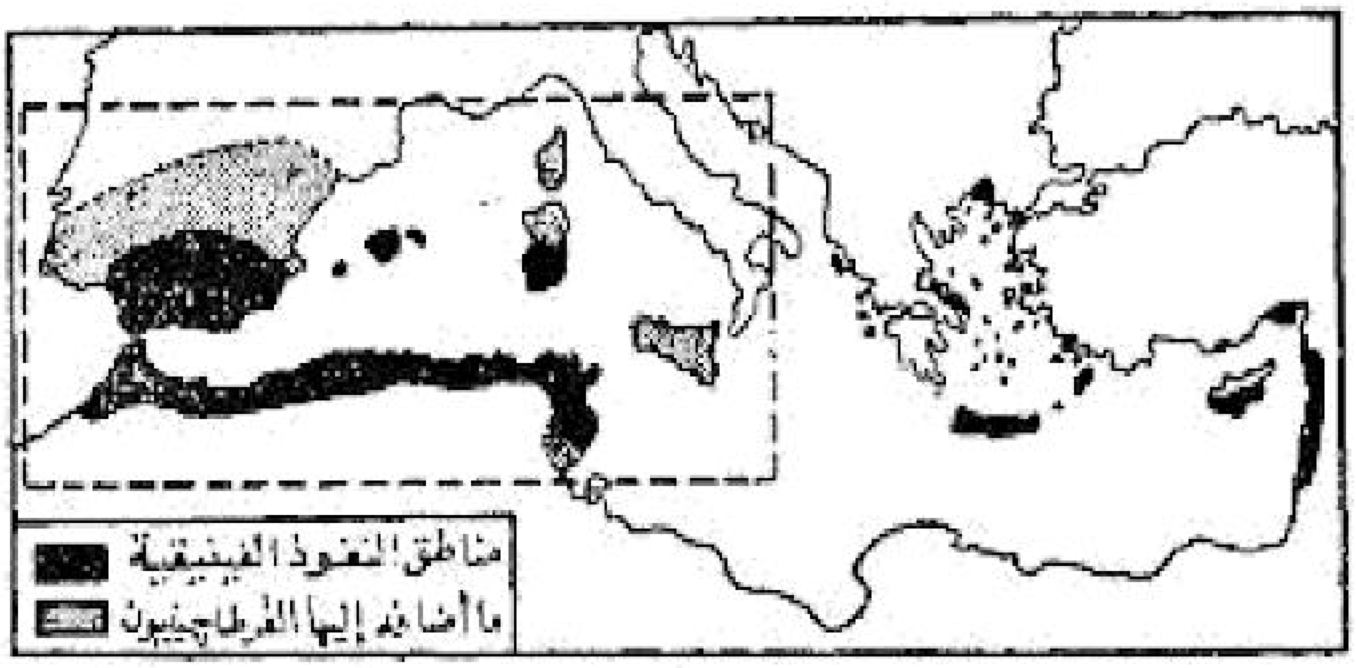

(الخريطة رقم ١٤) — الأراضي الفينيقية والقرطاجينية

الخريطة رقم 14 - الأراضي الفينيقية والقرطاجينية

وفي موقع قرطاجة نقطة ضعف أيضًا، فإن الشعوب التي دخلت تحت لوائها لم تبلغ مثل درجتها من المدنية بسبب الظروف الجغرافية في غال الأحيان، ونظر الفينيقيون إلى الأهالي كشعوب متأخرة وحكموهم كما حكمت أشور رعايا فتوحاتها بيد من حديد، وكلما نمت إمبراطورية قرطاجة اختفي شعور الود والصداقة بين الوطنيين والتجار واستبدل به شعور الحقد والكراهية للغزاة، ولما قدر لقرطاجة أن تواجه إمبراطورية أخرى تقوم على أسس أخرى في الحكم وتتبع أساليب أخرى في الانتفاع بالطاقة البشرية في سبيل تحقيق غاية أسمى عجزت قرطاجة عن مواجهتها وسقطت لأن القرطاجيين كانوا أسوأ موقفًا، على الرغم من تشابه الظروف الأخرى تقريبًا، وعلى الرغم من أن الطرفين كانا قد استعملا بذكاء أساطيلهما وجيوشها، ذلك أن جيوش الفينيقيين كانت مكونة من رجال لم يتبادلوا الود مع سادتهم كانوا ينصرون قرطاجة طالما أجزلت لهم العطاء، وهذه كانت تجمع أرباحها التجارية لكي تصرف منها في هذه الأوجه، وأموالها هي عبارة عن الطاقة التي اقتصدها القرطاجيون، فلمّا اختفت تلك الأرباح التجارية فقدوا السيطرة على البحر، وخانهم جنودهم الجشعون، إذ لم يتردد في جوانههم قط شعور بالوطنية، وحين فقدت قرطاجة سيادتها البحرية سقطت نهائيًا واحتفي الفينيقيون من المسرح.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

image
not
available

الهجرة إلى جنوب إيطاليا متخذين منها موطنًا لهم ومقامًا، كما وجد كتلة اليابس من سكان القارة ما يغريهم إلى الهجرة جنوبً، ومن الطبيعي أن تتقابل الجماعتان في نقطة ما من الإقليم وأن تقوم حضارة حيث تتقابلان وأن يزكى شعلتها الجانبان في وقت معًا وهذا هو ما حدث تمامًا، فنجد اليوم سكان الشواطئ في شمال إيطاليا من سلالات الأقوام التي كانت تسكن إيطاليا من قبل التاريخ وقد اضطرت إلى استيطان تلك البقاع تحت ضغط الجماعات المهاجرة من الكتلة اليابسة بينما الوضع عكس ذلك في الجنوب، إذ نجد أقدم السكان هم الذين يقيمون في داخل البلاد.

ولم يكن التقاء هذه القوى في روما بالذات صدفة واعتباطا، وكذلك لم تكن نشأتها كقلب للحضارة الجديدة أمرًا عارضًا حتى تبز غيرها من المدن الصغيرة أو من الحكومات الأخرى، ونظرة واحدة إلى الخريطة ترينا أن جبال الأبنين الأترورية

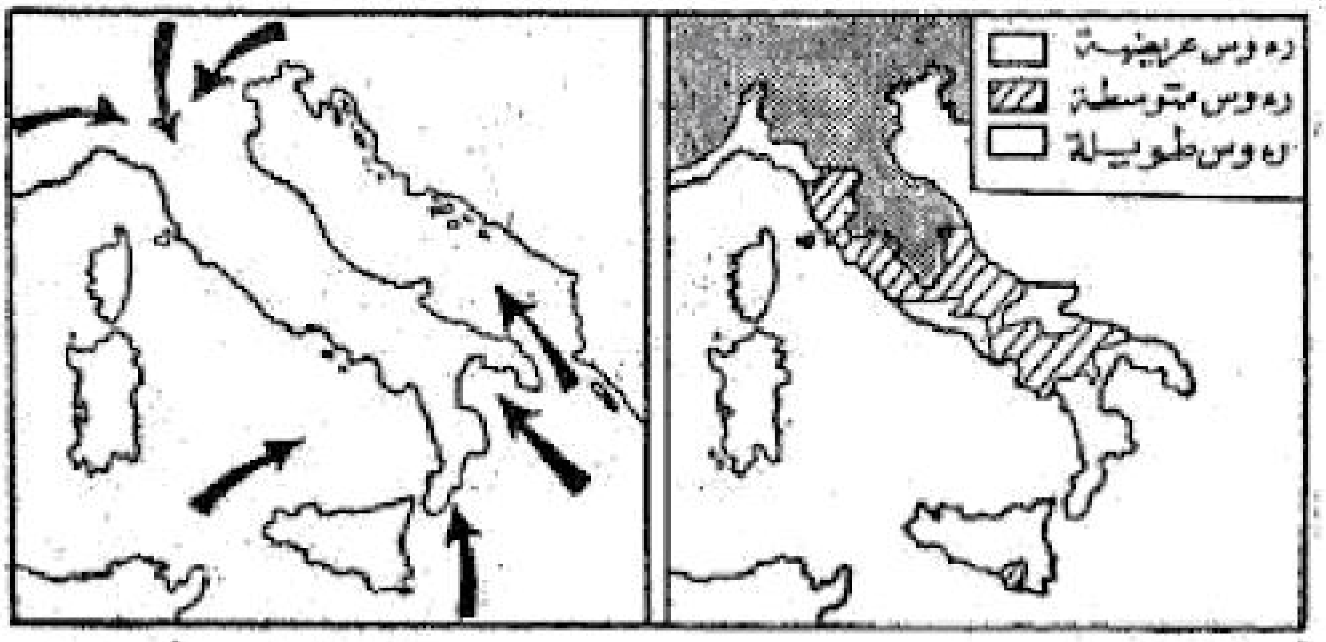

الخريطة رقم ١٦

الخريطة رقم 16

المدخل الشمالي من ناحية اليابس والسهل الجنوبي من ناحية البحر

وواضح أيضًا أن سكان الجنوب هم في جملتهم طوال الرؤوس وسكان الشمال عريضو الرؤوس كما يتضح أن طوال الرؤوس على الشواطئ وعراض الرؤوس في الداخل - هكذا يبدو أن عراض الرؤوس باءوا من اليابس بينما جاء طوال الرؤوس من البحر.

تقل في ارتفاعها عن جبال الإبنين الليجورية إلى الشمال الغربي منها، كما تنخفض عن كتلة المرتفعات العريضة الواقعة بين روما والبحر الأدرياتي في الشرق، إلا أن كتلة المرتفعات الجنوبية تنحدر انحدارًا فجائيًا نحو البحر لدرجة تضع العقبات في طريق المواصلات على طول السواحل الشرقية ويزيدها وعورة وجود

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image

not

available

image
not
available

image
not
available

شواطئها الجنوبية جماعات من الإغريق ظلت على اتصالها بالبحر لدرجة استحقت تسميتها "باليونان العظمى" وكان سكان هذه المدائن تجارًا يعيشون في بحبوحة من الرخاء، بينما قامت في الأراضي الشمالية مدنية لم يلعب البحر فيها إلا دورًا بسيطًا، وتعرضت لمؤثرات ليس للبحر فيها شأن يذكر أضف إلى هذا أنه كان من بين سكان إيطاليا الجماعات الرعوية التي تعيش في أعالي الجبال والجماعات الزراعية التي تعيش في السهول ونشأت بين النوعين اختلافات كبرى: فإلى الشمال من قسط من المدنية، وبالتالي أصعب مراسا في إخضاعها من الشعوب المتأخرة الأخرى التي كانت على اتصال بالقرطاجيين، وحين تم إخضاعهم عاملهم الرومانيون كنظراء لهم ومواطنين وقد يبدو الرومانيون الأوائل في أعيننا قساة غلاظ القلوب، ولكن قسوتهم في غالب الأحيان تقل عن قسوة غيرهم، ولم تكن حباً في القسوة لذاتها، أي بقصد إيقاع بالآخرين، ولكنها كانت قسوة وضعت خطتها وحسبت نتائجها من قبل مستهدفة الحكم الصالح وترمي في غايتها البعيدة إلى توفير الجهود والطاقة، وهكذا كانت الحكومة الرومانية أكثر ثباتاً واستقراراً من حكومات المدن اليونانية بل ومن حكومة قرطاجة أيضاً.

***

لقد رأينا كيف تضافرت الظاهرات الكبرى مع الظروف المحلية على أن تجعل من روما مقر لحضارة من طراز أسمى من أية حضارة ظهرت على الكرة الأرضية حتى ذلك الحين وعملت على ازدهارها فيها. ولولا هذه الظاهرات الكبرى لما كان للعوامل المحلية أثر كبير، وبازدياد توسع السيادة الرومانية أخذت مجموعة أخرى من العوامل تظهر أهميتها المتزايدة. فإن لتنوع التضاريس في إيطاليا عن شبه جزيرة اليونان كما يبدو تباينها مع أشباه الجزر الأخرى كأسبانيا والدانمرك. فأسبانيا في غالبها مرتفعات، والدانمارك في غالبها منخفضات وسهول، بينما تحوي إيطاليا المرتفعات والمنخفضات بنسبة متساوية تقريباً. واختلف نظرة أهل إيطاليا إلى الحياة باختلاف الظروف الجغرافية التي ترجع إلى البحر أو البر. ولذا كان يقطن شواطئها الجنوبية جماعات من الإغريق ظلت على اتصالها بالبحر لدرجة استحقت تسميتها "باليونان العظمى" وكان سكان هذه المدائن تجاراً يعيشون في بحبوحة من الرخاء. بينما قامت في الأراضي الشمالية مدنية لم يلعب البحر فيها إلا دوراً بسيطاً، وتعرضت لمؤثرات ليس للبحر فيها شأن يذكر. أضف إلى هذا أنه كان من بين سكان

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

image
not
available

إيطاليا بأجمعه اكتسبت هذه المؤثرات نفسها أهمية جديدة، إذ أصبحت الدولة الرومانية ذات علاقة مباشرة مع الشمال ومع الجنوب، فاتصلت من الجنوب ببحر فيه من الجزر ما يصلح لأن يتخذه العدو قواعد له في هجومه، وفي الشمال أصبحت ذات علاقات مباشرة بأراض، الهجوم منها ميسور لو قام به أعداء في أعداد وفيرة، يشنون على إيطاليا هجماتهم من أوطانهم الواسعة فيما وراءها، حتى وإن كانوا أقل مدنية وتحضرا. فاضطرت روما كما اضطرت فارس من قبل إلى إعداد أسطول تنتزع به سيادة البحر ممن يحتفظون بقواعد معادية قريبة من شواطئ إيطاليا. وفي الوقت عينه كان من الطبيعي أيضاً أن يتجه التوسع نحو اليابس ، وكان هذا الاتجاه جديداً في التاريخ.

ثانيا: ومع ذلك ظلت الظروف المحلية بحكم القصور الذاتي لها أكبر الأثر في التاريخ الروماني، لأن روما مازالت مركز الحكومة، ولتقاليد أهلها من الاعتبار ما يؤدي بغيرها.

1- من ذلك أن البحر لم يكن غريباً على أهل روما كما كان بالنسبة لملوك فارس، لأنه يحف بشواطئ لا تبعد عنها أكثر من بضعة أميال - كما أن المدن الجنوبية التي خضعت لسيطرة روما كانت تعتمد اعتماداً كلياً على البحر. بل وأكثر من ذلك فإن الأساطير الرومانية تشير إلى نوع من الحكم القديم فرضته روما على المدن الواقعة على شواطئ منطقة لا تيم - ولولا هذه الألفة العريقة المستمرة بين الرومانيين والبحر لتملكنا الشك في أن يكون لوجود الجزر وأشباه الجزر الجنوبية هذا الأثر السريع وبالكيفيه التي تم بها.

2- ومن جهة أخرى تختلف إيطاليا عن اليونان. فأن روما هي المركز الذي اعترفت له باقي إيطاليا بالسيادة والزعامة. ولم يتيسر لوما موقف كموقف مقدونيا - فليس الحكم فيها كله من صنع رجل واحد أو رجلين اثنين فقط - وكثيراً ما تطلب الأمر استدعاء عدد من المواطنين ليقودوا الجيوش أو ليتولوا مقاليد الأمور في الدولة ومن الطبيعي ألا يكون جميعهم جديرين بهذه المهمات. ولكن حقيقة واحدة تبقى واضحة، وهي أن الأكفاء من الرجال القادرين على مواجهة الأزمات قمينون بالظهور عند ما تتحرج الأمور. ولمثل هذه الأسباب كانت أداة القتال الرومانية أكفأ نسبياً من الأداة المقدونية.

وكانت حكومات الأقاليم الرومانية المفتوحة أكثر ثباتاً واستقراراً. ويرجع الفضل في استمرار هذه الأحوال في واقع الأمر إلى القصور الذاتي التاريخي وإلى اتجاه الظروف القائمة نحو الاستقرار والثبات.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

image
not
available

الخريطة رقم 19- مدخل وادي الرون
وادي الرون هام جداً لأنه المنفذ الوحيد السهل
من البحر الأبيض المتوسط إلى البلاد الشمالية

وقد قامت الإمبراطورية على سلطان تركز في روما، ومعظم الفضل في تماسكها وانسجامها راجع إلى العبقرية العسكرية والإدارية التي امتاز بها الشعب الروماني والتي هي وليدة عوامل جغرافية - ولما كان العنصر الروماني يمتاز بتلك العبقرية التي لم تقتصر على فرد دون فرد لم تكن الإمبراطورية الرومانية فترة عابرة في التاريخ مثل الإمبراطورية المقدونية - بل استمرت قوية واسعة النفوذ حتى القرن الخامس للميلاد. ثم استمرت تحت اسم الإمبراطورية البيزنطية حتى سقطت بسقوط القسطنطينية في عام 1453م. ثم استمرت اسما دون مسمي حتى جاء اسكندر جديد (نابليون) طوح بالتقاليد القديمة في أوروبا، وفي هذا تبدو قوة القصور الذاتي فبقدر ما كانت روما في قوتها بقدر ما عاشت إلى ذلك الزمن. ثم انحدرت الإمبراطورية الرومانية إلى نهايتها شأنها شأن غيرها من الإمبراطوريات التي فرضت حكمها على العالم، ولكنها اقتربت من نهايتها تدريجياً كما نمت تدريجياً لأن العوامل الجغرافية العظمى بدأت تؤثر تأثيرها على نحو آخر.

(1) ذلك أن البحر المتوسط ضيق على طوله. ومن ثم كانت الإمبراطورية الرومانية وهي المكونة من أراضي تحف بهذا البحر، طويلة ضيقة تصل في طولها إلى ضعف عرضها تقريباً كما أن الصحراء في الجنوب لم تترك بينها وبين البحر إلا شريطاً ضيقاً في أكثر الأحوال. لو قصرنا النظر على الأراضي الواقعة شمال البحر المتوسط باعتبار

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

image
not
available

الفصل السابع

السهول والقبائل الغازية

إن التاريخ الذي تتبعنا مجراه حتى الآن يرجع في سماته العامة إلى تحكم عاملين جغرافيين في تصرف الإنسان، يضبطان اتجاهاته أو يحفزانه إلى اتخاذ مواقف معينة وهما البحر والصحراء، وقد كفل كل منهما الحماية بدائية في تنظيمها لم تكن ترتبط ببعضها في بادئ الأمر بروابط وثيقة. وقد ألمحنا إلى عوامل أخرى لم يتعد فعلها تخفيف أثر هذين العاملين العظيمين، وترجع نشأة الحضارات الأولى إلى هاتين الحقيقتين أي وجود مناطق خصبة تحيط بها الصحراوات ووجود جزر تحيط بها البحار.

ثم قامت مجتمعات أخرى تتصل بهذه المجتمعات المتقدمة وتدين بوجودها إلى الظروف الجغرافية ذاتها بصفة مباشر إلى حد ما، وكانت بحكم جيرنها للمجتمعات الأصلية قريبة من البحر والصحراء.

نعم لم تنشأ هذه المجتمعات في المناطق الاستوائية حيث الحافز إلى التقدم قليل الأثر، ولم تنشأ في الشمال ذي المناخ البارد حيث قست صعوبات المناخ على الإنسان الأول فلم يستطيع بمفرده أن يصيب نجاحاً يذكر في التغلب عليها، بل نشأت في غالبيتها على طول شواطئ البحر المتوسط، في الأجزاء التي استطاع الإنسان سكناها غير أنه قامت مجتمعات متقدمة أخرى إلى الشرق من البحر المتوسط ولعبت الإمبراطورية الرومانية دورها بعد ذلك إذ عملت على وصل غرب أوروبا وصلا مباشراً بالمدنيات القائمة وقتئذ في شرق البحر المتوسط، وهكذا لم يكن بد من أن تصبح أوروبا وعلى الأخص جنوبها هي البلاد التي لتاريخ شعوبها أهمية عظمى للعالم، وما ذلك إلا لأنه امتد هنا وهنا فقط نطاق من الصحراء ونطاق من البحار تبعثرت في الجزر وقسمته أشباه الجزر.

ولقد فرضنا أن توزيع اليابس والماء والبرودة والحرارة والمطر والجفاف كان كما هو اليوم - وظل ثابتاً طوال العصور التاريخية، هذا لو قصدنا بكلمة العصور التاريخية تلك العهود التي نعرف تاريخها غير أن هناك من الأسباب الوجيهة ما

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

image
not
available

بخصائصها شيئاً فشيئاً.

(1) فإلى الشمال سكنت الأقوام النوردية وكانت قليلة في عددها في بادئ الأمر ولم تسود بشرتها بسبب عدم التعرض لكثير من أشعة الشمس.
(2) وإلى الجنوب من مرتفعات الألب سكن جنس في أقاليم امتازت بسمائها الصافية وبيئتها الطبيعية الجميلة فنمت فيه حاسة الذوق الفني وتقدير الجمال في الأجسام والألوان.
(ج) وظل البربر محصورين بين البحر المتوسط والصحراء الكبرى ولم تسمح لهم ظروفهم القاسية بالنمو والتطور كما سكن المصريون مصر وقد تأثروا بطبيعة النظام الحولي الذي يتبعه موردهم المائي.

(د) وإلى الجنوب من الصحراء الكبرى قطن الزنوج وقد اسودت بشرتهم واستطاعوا مقاومة الشمس الحارقة.

وإنا سنتكلم فيما بعد عن الأراضي الفسيحة الممتدة جنوب الصحراء الكبرى وقد تكلمنا فيما سبق عن الأراضي الممتدة بين الصحراء الكبرى وجبال الألب، ولنلق الآن بنظرة على الأراضي الممتدة شمال جبال الألب.

لم يقتصر أثر تغيير الأحوال المناخية أن أصبحت أفريقيا الجنوبية كتلة منفصلة من اليابس بل أن أوروبا ذاتها قد انفتحت على مصاريعها للمؤثرات الأسيوية.

***

أن خرائط أوراسيا تظهر لنا أن نطاقاً عظيما من المرتفعات يحيط بحافاتها من الشرق والجنوب والغرب وأن سهلا عظيما مثلث الشكل تقريباً يقع فيما بين هذه المرتفعات معزولا عن البحر من جميع الاتجاهات إلا في الشمال المتجمد وأنه يرتفع قليلا عن مستوى 600 قدم فوق سطح البحر، وهو أعظم سهول الدنيا، ولقد لاحظنا الفروق الأساسية بين المرتفعات والسهول فيما سبق - كما رأينا أن تنوع الظاهرات في أوروبا الغربية كان له أثره في التاريخ - ويجب أن نلاحظ أن الأحوال الجغرافية في آسيا هي بعينها في أوروبا غير أنها أكثر شمولا لمساحات شاسعة، فالسهل بعيد عن البحر وليس الأمر مقصوراً على البعد، بل أن نطاقا من

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

image
not
available

تعرضت الجماعات في كلا السهلين في هذه العصور السحيقة لأحوال متماثلة ولدت فيهم الصفات التي تميز بها سكان المراعي - وهم ينتمون إلى أجناس مختلفة - فكان الغزاة المتدفقون من السهول على نوعين، سكان شمال أوربا وهم من ذوى اللحي ويسمون بالتيوتون، وسكان آسيا وهم مرد الذقون ويعرفون باسم التتار والمغول، هذا الاختلاف في الجنس صاحبته اختلافات أخرى مردها أسباب وعوامل جغرافية - فإن شعوب النصف الأوربي من السهل - كما حدث فعلا - كانوا أكثر أتصالا بالمؤثرات الحضارية عما كان عليه سكان النصف الأسيوي، على حين لم يصب سكان جنوب آسيا تقدمًا يذكر لأسباب سنتولى مناقشتها فيما بعد، وعلى أية حال فإن نطاق المرتفعات في آسيا أكثر عرضًا عنه في أوربا مما يجعل منه حاجزًا أشد مناعة أمام حركات الإنسان وأمام انتقال الثقافات، فاشتدت عزلة النصف الأسيوي من السهل عن مراكز الحضارة الأخرى كما أن الأحوال المناخية تشتد في قسوتها في الشرق عنها في الغرب، والكتلة الأسيوية أعظم اتساعًا من كتلة أوروبا، وهكذا بعد قلب آسيا كثيرًا عن مؤثرات البحر وتطرفت فيه درجات الحرارة والبرودة - كما حال اتساع المرتفعات الأسيوية وارتفاعها دون وصول الأمطار إلى داخل القارة إلا في كميات قليلة كما أن البعد عن المحيط وخصوصًا المحيط الغربي جعل سقوط الأمطار أقل حدوثًا في آسيا عنه في أوربا.

وهكذا أصبح سكان السهول في أوربا - ولو أنهم على درجة من التأخر - أكثر رقيًا أو بعبارة أخرى أقل همجية من إخوانهم الأسيويين، فكانت الخصائص المميزة لسكان السهول أقل بروزًا فيهم وأصبحوا أكثر ارتباطا بالأرض من الآخرين وبالتالي قل ميلهم إلى الهجرة - وقد يخيل إلينا أن الأوروبيين كانوا أعلى صوتًا في العصور السحيقة من غيرهم ولكن هذا يرجع في أغلب الظن إلى أن غزوات الجحافل الأوروبية في معظم الأحوال كانت بسبب اضطراب الرعاة الأسيويين الذين كانوا يضغطون على مؤخرتهم أكثر مما ترجع إلى أية رغبة جامحة فيهم نحو الهجرة.

وما من قبيلة من هذه القبائل الرعوية كانت كثيرة العدد ويتحتم عليها أن تكون على شيء من التنظيم لا غنى عنه لبقائها نفسه، وليس من المحتمل أن تبلغ عصابة متنقلة درجة عالية من التنظيم بحيث تضم عددًا كبيرًا من الأفراد دون أن يعتريها شيء من الفوضى ونجد من الخير لها أن تعمل على توفير المرعى لعدد أقل نسبيًا من قطعان الماشية التي تتوقف عليها حياة أفرادها ومهما كان عدد القبيلة صغيرًا فهو يفوق عادة عند نقطة وصولها أعداد القاطنين من الشعوب المستقرة، فيضطر هؤلاء المستوطنون إلى أن يخضعوا أو يستسلموا ثم يضغطون بدورهم على آخرين وقد يفضل هؤلاء المستوطنون إلى أن يخضعوا ويستسلموا ثم يضغطون بدورهم على

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

image
not
available

الذعر والاضطراب بين القانطين على حافاتها لا في أوربا فحسب بل وفي غرب آسيا وفي الهند وفي الصين.

واستمر ذلك منذ عصر ما قبل التاريخ حتى قبيل بدء عصرنا الحالي ببضعة قرون - ولو أننا استعرنا تعبيرا كميائيا لقلنا أن رعاة السهول كانوا يقومون بدور السائل المذيب للشعوب المستوطنة على إطار هذا السهل - وأن عملية التبلور تتأخر بذوبان البلورات التي سبق تكوينها قبل ذلك الحين ولا تلبث أن تتكون بلورات جديدة أكبر حجما من السابقة، وهكذا تحل وحدات جديدة أقل عددا وأكبر حجما محل الوحدات القديمة المتعددة، وتسكنها شعوب مستقرة وتسودها حكومات ثابتة.

ولقد تأثرت مصر قليلا بالرعاة بسب بعدها عن السهل الأعظم ولكن أشور واليونان وروما كما رأيناها كانت تنظر في هلع نحو الجبال الواقعة على حدودها الشمالية خشية أن تظهر من بين ممراتها ودروبها شعوب مدفوعة في تحركها بحافز من بيئة المراعي التي تركوها وراءهم، وكانت الإمبراطورية الرومانية أكثر الدول القديمة تعرضًا لغزوات هذه القبائل لأن حدودها ترامت إلى الشمال وإلى الشرق وراء جبال أوربا الجنوبية وبقيت جبهاتها أكثر تعرضًا للهجوم من أي من الإمبراطوريات القدمية، ولهذا أصبح تاريخ روما المتأخر وثيق الارتباط بتاريخ الشعوب القاطنة في ذلك السهل وحتى بعد أن تكونت دول عظيمة في غرب أورباظل شرق أوربا قرونا معرضًا لهجوم القوات القادمة من المراعي، كما أن الإمبراطورية الشرقية كان مصيرها كشقيقتها الغربية الانهيار أخيرًا تحت سنابك غزوات الرعاة.

ويبدو دور هذه الشعوب في تاريخ العالم واضحًا، لأن ظروفا جغرافية متعددة الألوان تضافرت فأدت إلى هذه النتيجة، ولبر الآن هل أصاب البشر تقدما؟ وهل استطاعوا فعلا توفير الطاقة واختزانها؟ لا شك أن هناك مجهودًا ضائعًا، فقد تهدمت الإمبراطورية الرومانية بنظمها العتيدة العظيمة فهل عِوض عنها البشر خيرًا؟ هل كان تدمير جزء كبير من الإمبراطورية الرومانية عبثًا ضائعًا؟ أو أنه كان بمثابة إزالة آلة مهملة كان من الواجب إزالتها قبل أن تركب مكانها آلة جديدة أفضل منها؟

لقد حدث التقدم في ثلاث نواحي:

أولا: أن البرابرة الأسيويين والغربيين كانوا شجعانا أقوياء البنية وكانت أغلب الشعوب القديمة كالمصريين والبابليين واليونان والرومان والفينيقيين تعيش في

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

image
not
available

سيطرتها لفترة ما على بضع واحات وعلى المراعي التي تتخللها.

4- ونظرًا لأن المراعي في الجزيرة العربية محاطة فعلا بالصحراء وبالبحر وكلاهما كان عسير الاجتياز في العهود القديمة أصبح سكان بلاد العرب شعبًا منعزلا، وتوفرت لهم وسائل الحماية من الغزو الأجنبي، كما أمسوا ضعاف الأثر في الشعوب الأخرى، عاجزين عن التدخل في الشئون الخارجية ما دامت السلطات القائمة في المراعي ضئيلة ولا انسجام بينها.

وليس بعجيب إذن أن يترك سكان السهل الأعظم أثرًا محسوسًا مستمرًا في التاريخ لعدة قرون وألا يؤثر سكان بلاد العرب في تاريخ العالم إلا في زمن متأخر من العصور التاريخية، على الرغم من قرب مواطنهم من مصر وفلسطين وبابل وبلاد اليونان، هذا على الرغم من أن العرب كانوا يميلون إلى الانتشار في البلاد المجاورة إلا أن هجرتهم إليها كانت متغيرة متقلبة ولم تتخذ شكلًا محددًا.

وقد يعترضنا السؤال الآتي: "ولماذا ترك العرب إذن في التاريخ أثرا؟" ولأن نجيب على هذا السؤال يجب أن نزن النحو الآخر الذي جرت عليه الظواهر الجغرافية، وقد رأينا أن الناس قد يتقدمون أو يتأخرون بسبب الأحوال الجغرافية التي تؤثر في أجسامهم وبالتالي في صفحات عقولهم، وقد رأينا أن حماية الصحراء التي كفلت الرخاء المادي للمصريين القدماء وللبابليين أوحت آخر الأمر إليهم بالثقة في حمايتها لهم، كما رأينا أن الأحوال الجغرافية السائدة في بلاد الإغريق، وما تمخض عنها من نشأة حكومات المدن العديدة مستقلة بعضها عن بعض، رأيناها تؤثر في عقول اليونانيين وتخلق منهم رجال سياسة.

كذلك أثرت الأحوال المادية بالطريقة عينها في عقول العرب وكان تأثيرها مباشرًا فإن تنقلهم في بطء شديد من واحة فوق مراع وصحاري مع تكرار المنظر الطبيعي ونمطيته حيث تخلو الطبيعة من كل ما يلفت النظر أميالا وأميالا، كل هذا دفع بهم إلى التأمل والتفكير، فهم أن حلوا بالصحراء شعروا شعورًا آليا ودون وعي منهم بعجز الإنسان الشديد، وأن حلوا بالواحات أدركوا أنها تقبل الإصلاح والتحسين وأنها تستجيب للمجهود الإنساني الذي يبذل فيها فترد الجميل إنتاجًا متزايدًا، بينما الصحراء لا تستجيب لمجهود ما ولا يمكن التغلب عليها قط، هنا شعر العر بوجود ظاهرة عظمى صامتة تسمو على كل عظيم من الأشياء، وأدركوا - تحت ضغط ظروف الحياة - إدراكا متفاوت الدرجات، أنهم ليسوا أحرارًا فيما يريدون، والناس دائمًا على مختلف ألوانهم يعتنقون ديانات يحاولون أن يفسروا بها في وضوح تتفاوت درجته ما عجزوا عن إدراكه من أسرار العالم المحيط بهم، ويفسرون على الأخص الغاية التي خلقوا من أجلها، وأغلب الأجناس والقبائل تحس أنها معرضة

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

image
not
available

متفاوتة في جفافها ونباتها وتلائم الحركات التي ألفها العرب في موطنهم الأول، فإن العربي لا تربطه بالأرض رابطة، سريع التنقل معتمدًا في غذائه على الحيوان الذي يحمله ويحمل متاعه، وما دامت البيئة الجديدة بيئة مراع فهي مألوفة له تطيب له فيها جميع منازلها، فكل منزل عنده لا يفضل الآخر، هكذا كانت الأراضي التي غزاها العرب في أول الأمر محددة بحكم جغرافيتها وبحكم ماضيها التاريخي.

ولنبحث الآن الوقائع التاريخية: لقد توحدت بلاد العرب تحت زعامة الرسول في الثلاثين سنة الأولى من القرن السابع الميلادي وغزا العرب في العشرين سنة التالية مصر وسوريا والعراق وبلاد فارس وطوران وجزءًا صغيرًا من الهند وحولوا أهلها جميعًا إلى الدين الإسلامي ثم توقفوا قليلاً أمام بعض العقبات، ولما كانت آسيا الصغرى على النقيض من سوريا قد تحولت تمامًا إلى المسيحية وخضعت لسيطرة الإمبراطورية الشرقية لم يستطع العرب قط أن يوطدوا أقدامهم بصفة مستمرة في الشمال الغربي من جبال طوروس، أضف إلى هذا أن العرب في أساس عنصرهم رجال برو الهجوم، من البر على دول شمال إفريقيا وما وراءها أمر عسير خاصة وأن الإمبراطورية الشرقية كانت لا تزال تملك أسطولاً وتستطيع أن تسدي بعض المعونة لمستعمراتها البعيدة ولهذا تأخر فتح العرب لها إلى أن بسطوا سيطرتهم على مهد الملاحة البحرية في مصر وفينيقيا وتمكنوا بعد مرور خمسين عامًا أخرى أي في أوائل القرن الثامن. من أن يضيفوا إلى سلطان الخلفاء الساحل الشمالي لإفريقيا بفضل حملاتهم البحرية، وأكثر من هذا، لقد عبر العرب مضيق جبل طارق وفتحوا إسبانيا في سنين. قليلة، وهي أبعد بقاع الإمبراطورية عن الحكم الروماني المركزي، وفرضوا سلطانهم على كل البلاد الإسبانية ما عدا أجزاء جبلية في شمالها الغربي استمسكت بالمسيحية، وكان لهذا الاستثناء هنا أهمية خاصة.

أقيم هذا الملك العريض في الفترة تقل قليلاً عن قرن من الزمان، وكانت بلاد الجزيرة العربية هي مهده، ثم لم تعد ملائمة لما تلي ذلك من ظروف السلطان. والسيادة شأنها في ذلك شأن غيرها من المهاد، فاختيرت على التوالي دمشق وبغداد كعواصم للحكم الإسلامي.

وكان هذا الملك طويلاً ضيقًا بسبب وجود الدول المسيحية إلى الشمال والصحراء الكبرى إلى الجنوب، وأنه لمن الصعوبة بمكان أن تحكم البلاد الطويلة الضيقة من مركز واحد، مثلها كمثل مصر القديمة والإمبراطورية الرومانية، ويزيد الأمر صعوبة أن مقر الحكم لي سفي وسط هذا الملك العربي فكان من الطبيعي أن ينقسم إلى جزأين كل منهما تحت إمرة خليفة يدعى أنه الوارث الشرعي للنبي محمد

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

image
not
available

إن لشكل الأرض دائمًا أهمية كبرى في التاريخ لأن توزيع الحرارة والبرودة والمطر والجفاف والغابات والمراعي متوقف في أساسه على الكيفية التي تدور بها الأرض حول محورها وعلى موقعها بالنسبة للشمس، وقد وصلنا الآن إلى مرحلة يصبح فيها شكل الأرض ذا أهمية في تاريخها على نحو آخر.

يتضح مما سبق أن الإنسان لم يهتم حتى المرحلة السابقة في قليل أو كثير بشكل الأرض سواء كانت مسطحة أم كروية - بل كانت مسطحة في نظر معظم الناس تقريبًا - غير أن الراسخين في العلم كانوا يعرفون أن العالم كروي الشكل حتى أن أراتوستينس الإسكندري حسب أبعاده وكانت فكرته عن شكل الأرض أدق من فكرة كولومبس عنها وكانت عملة حساب حجمها عنده يسيرة سهلة لأن المسافة بين مدينتي سين (أسوان) والإسكندرية كانت معروفة على وجه الدقة لأن مصر بتربتها الغالية الغنية وفيضانها السنوي في حاجة دائمة لتعرف مساحة أراضيها بدقة وعناية. ومهما يكن من شيء، فإن شكل الأرض لم يكن ذا أثر مباشر في التاريخ إبان عهد أراتوستينيس. بل كان حقيقة علمية ليس لإدراكها أهمية عملية في حياة البشر. ولما أصبح الناس قادرين على الإفادة من معلوماتهم عن كروية الأرض بدأ شكلها يتحكم في التاريخ على نحو آخر.

غير أن اكتشاف شكل الكرة الأرضية كان ذا أهمية لأنه اتصل بحقائق أخرى - ذلك أن سيادة العرب كما رأينا كانت تعتمد اعتمادًا جزئيًا على سيطرتهم على البحار التي امتلكوا ناصيتها - وكانت الإمبراطورية الرومانية تدين بعظمتها لنفس هذه الحقيقة كما اعتمدت سيادة الفينيقيين واليونانيين اعتمادًا يكاد يكون تامًا على أساس إتقانهم فنون الملاحة البحرية - وكان البحر المتوسط هو منبع هذا النشاط الملاحي وإن كانت السفن تشق طريقها بحذاء السواحل الأخرى ومن الجائز أن تكون السفن الفينيقية قد أبحرت نحو الهند ومن المؤكد أن التجار العرب قد وصلوا إلى الصين ودار أجريكولا بنفسه حول إسكتلندا وعبر قراصنة بحر الشمال إلى الجزائر البريطانية وأيسلند وربما وصلوا إلى جريلند أيضًا وأسسوا في أوائل العصور الوسطى مستعمرات على جميع شواطئ أوربا الغربية دامت قليلاً أو طويلاً.

ولاكتشاف البحار أثر بعيد في تاريخ العالم، ولقد تكلمنا آنفًا عن سهولة الحركة على الماء بمقارنتها بالحركة على اليابس ولكنها كانت محدودة بحدود، فإن الملاحين القدماء اقتصروا في رحلاتهم على البحار الداخلية والملاحة الساحلية على هامش المحيطات بسبب ما تردد في نفوسهم من رهبة البحار المجهولة، وأهم البحار

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

image not available

كما أن أوربا والت تقدمها في سلم الحضارة، وظهرت بالتدريج دول على أنقاض الإمبراطورية الرومانية، تكونت مباشرة بسبب تهديد جماعات الرعاة من الشرق وهجوم العرب من الجنوب ورجال البحر الأشداء من أشباه الجزر الشمالية، وأخذ مستوى المعيشة في هذه الدول الناشئة يرتفع تدريجيًا، ووجد أهلها بمرور الزمن أن اللحم المقدد الذي كانوا يختزنونه للشتاء حين تعجز الأرض عن الإنتاج يصبح لذيذ الطعام مستساغًا لو أنهم أضافوا إليه بعض البهارات، وعلى الأخص الفلفل، وأن النشاط الذي يبعثه الطعام يمكن أن يزيد لو استثيرت شهية الإنسان للأكل وزادت قدرته على هضمه، وهكذا أصبح لتجارة التوابل التي كانت في أيدي العرب شأن أي شأن، ومن ثم اختصت التجارة بما خف وزنه وقل حجمه وغلا ثمنه حتى توازن تكاليف نقلها لا بالبحر وحده بل وفي البر أيضًا وعلى ظهور الإبل والجياد، وهكذا جنى العرب أرباحًا طائلة من نقل هذه التجارة الثمينة.

ولكن العرب لم يفتحوا أوربا وقد نشأت بها مدن تجارية في مواقع ملائمة وتجمعت لها قوة عظيمة، وكان من الطبيعي أن يكون شمال إيطاليا أكثر البقاع ملاءمة لنشأتها حيث البذخ والترف على أشده وحيث تجد التجارة لها أسهل المنافذ إلى أراضي أوربا الشمالية. فقامت البندقية في ظل حماية مستنقعاتها الرملية، آمنة من العدوان عليها من البر أو البحر ومارست تجارة عظيمة لسنوات عديدة. وكذلك نشأت جنوة وبيزا جمهوريتين تجاريتين هامتين أيضًا، ونظرًا لحاجة العدد الوفير من سكان شمال إيطاليا إلى مقادير كبيرة من البضائع يستوردونها من البلاد المجاورة كانت السفن تأتي إليهم محملة بالبضائع على كل حال وأضحت البندقية، وجنوة الثغور التي تستقبل بضائع الشرق الثمنية وفاقتا الموانى الأخرى في حجم التجارة الواردة إليها، وهكذا نمت هذه المدن وأضحت موانئ هامة لأن مثل هذه التجارة وإن صغر حجمها كانت تدر أرباحًا طائلة على من يمارسونها بنجاح.

ولما كانت الهند وجزائر الهند هي المصدر الوحيد لهذه البضائع الثمينة تخيل سكان الأمم الغربية بطبيعة الحال أن الهند بلاد غنية وترعرعت في صدورهم رغبة جامحة للوصول بأنفسهم إلى هذه الأراضي الجديدة حتى يتيسر لهم استحضار كنوزها دون أن يدفعوا للعرب عليها مكوسًا.

ويجب أن نلحظ الآن أن الأراضي التي تحف بالمحيط، ولنسمها بأسمائها الحديثة كالبرتغال وإسبانيا وفرنسا والأراضي الواطئة وألمانيا والدانمرك والنرويج وبريطانيا، قد استقبلت جميعًا أما مباشرة وأما غير مباشرة أضواء الحضارة من مواطنها في البحر المتوسط ولكنها ظلت تعيش حتى اكتشاف المحيطات على هامش

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

image
not
available

الهجوم على المسلمين في أسبانيا وأن تعيداها إلى حظيرة المسيحية. وكلما ازدادت أهمية كل من الدويلتين كلما كان من الطبيعي أن تبرز الفوارق الطبيعية بين السهل والجبل.

أما الأراضي المنخفضة الواقعة غربي ليون فقد استقلت وأصبحت نواة لدولة البرتغال، وخرج من ولاية نافار وادي نهر الأبرو(14) وامتد شرقًا مكونًا أمارة أراجون كما ظهرت أمارة قشتالة في الهضبة الغربية وبقي م الدويلة الأصيلة في الجبال الشمالية بقية صغيرة تحمل اسم نافار، ثم اتحدت امارتا قشتالة وليون مكونتين قشتالة الكبرى، وهكذا أصبح في شبه جزيرة إيبريا في مطلع القرن الرابع عشر ثلاث دويلات مسيحية كبرى وكانت قشتالة وحدها هي التي تجاور حدودها الدولة الإسلامية الوحيدة الباقية ألا وهي دولة غرناطة.

لقد نجحت البرتغال في تخليص بلادها من حكم المسلمين وهكذا ولدت البرتغال دولة مسيحية، خلقت وهي تحارب المسلمين، ومن الطبيعي أن تتابع الاتجاه الذي وجدت نفسها تسير فيه منذ مولدها لأن أهلها المسيحيين قد تعودوا محاربة المسلمين دفاعا عن عقيدتهم، فبدا طبيعيا أن يستمروا في حروبهم الصليبية ضد المسلمين حتى ولو اقتضى تطور الحرب أن يعبروا البحر إلى أفريقيا، وهكذا تكونت لهم قبيل منتصف القرن الخامس عشر ولاية برتغالية على شواطئ أفريقيا تسمى "بالغرب فيما وراء البحار" (Algarve beyond the sea) ومن ثم تهيأت لهم ظروف مواتية لكشف المحيط.

وكان للبرنس هنري الملاح أكبر الفضل في السير بخطى حثيثة في الكشف من المحيطات، وهو برتغالي الأصل أوتي الحكمة وبعد النظر، ولأعماله أكبر الأثر في الإسراع بأحداث التاريخ الطبيعية في مسراها المقدر لها، لقد شب الأمير هنري الملاح وهو يرى أمامه دائمًا قوة العرب في تجارتهم، فبنى في عام 1418 مرصدًا على قمة جبل ساجرس الشامخة إلى جوار رأس سنت فنسنت، وأخذ يرسل منذ العام التالي السفينة وراء السفينة وكلما تسمى جنوبا على طول الساحل الإفريقي وهي تهدف إلى تحقيق الغرض العاجل: أي كشف طريق بحري إلى الهند.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

وسرعان ما أدركت دول أوروبا قيمة اكتشاف كولمبس إذ لم تمض ستة أسابيع على عودته في عام 1493 حتى أصدر البابا منشورًا يؤيد كروية الأرض ويمنح نصف الكرة الغربي لإسبانيا كما سبق أن منح النصف الشرقي للبرتغال، ولم تكن الأراضي التي اكتشفها كولمبس في محاولته للوصول إلى الهند بلادا يهتم بها البشر آنئذ، فقد اقتصر البرتغاليون على تحميل سفنهم بالتجارة الهندية التي اعتاد العرب نقلها من قبل، أما في العالم الجديد فلم يجد الإسبان تجارة أ, بهارات ينقلونها، بل أن الإسبان الذين جاءوا في أعقاب كولمبس في أعداد وفيرة كانت تساورهم ثلاث أفكار هي القتال والتبشير بالمسيحية واقتناء الذهب والفضة، ولم تشغل التجارة حيزًا من تفكيرهم، ويجب ألا يبعث هذا على الدهشة لأن أهل قتشالة اعتادوا القتال منذ قرون مضت في سبيل نشر المسيحية، هذا بالإضافة إلى أن الهضبة التي يعيشون على سفوحها تنتج المعادن الثمينة ولا تلائم التجارة.

وعلى الرغم من أن نصف العالم الغربي منح لإسبانيا إلا أن الإسبان لم يفتحوا كل أراضيه، وتحكمت العوامل الجغرافية في تحديد الأراضي التي دخلت في نطاق

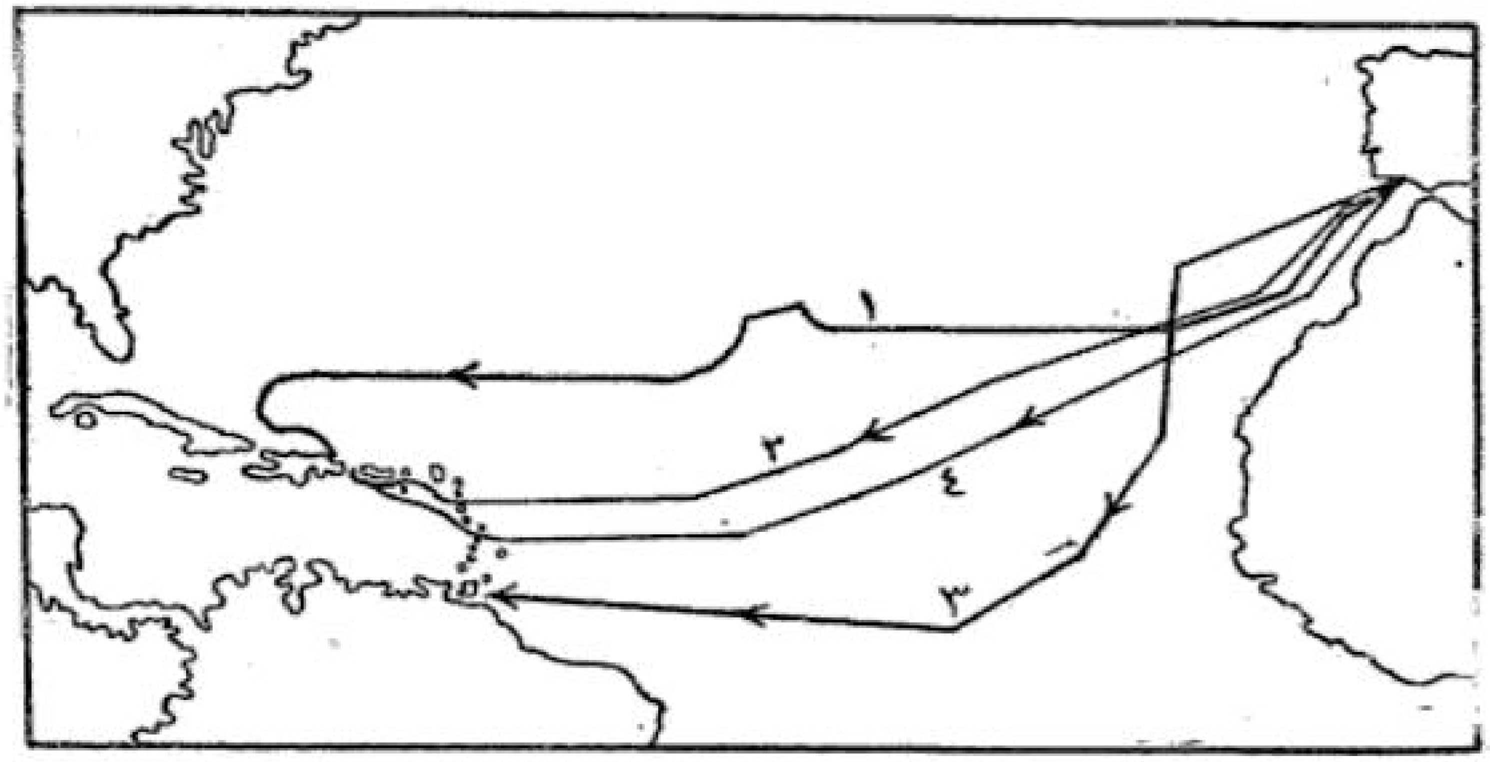

الخريطة رقم ١٩
رحلات كولومبس

الخريطة رقم 19 - رحلات كولومبس

نفوذهم، فإن نظرة إلى الخريطة ترينا كيف أن الرياح التجارية في المحيط الأطلسي تهب في ثبات وانتظام إلى الجنوب الغربي، ولهذا لم يعبر كولمبس المحيط في اتجاه غربي تمامًا بل اتخذ اتجاهه غربي الجنوب الغربي فوصل إلى الجزائر

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

image
not
available

سادها الإصلاح الديني، ومن ثم اختلف التطور التاريخي في شمال القارة عنه في جنوبها وأصبح الموقف شبيها بالآلهة التي لم تهيأ تماما لظروف استخدامها، وتولد عن هذا الاختلاف بين الشمال والجنوب احتكاك متزايد، كما أدى اختراع الطباعة في البلاد الشمالية إلى توفير عظيم في طاقة أهلها وانطلق الناس يوجهون جهودهم إلى ميادين أخرى فانتشرت بصفة خاصة المذاهب الحديثة انتشارا أسرع كثيرا مما لو لم يقدر للطباعة أن تظهر، وهكذا تمكنت العداوة في النفوس بين أهل الشمال والجنوب، وظلت كامنة تنتظر الشرارة الأولى فتنطلق من عقالها وليس بعجيب بعد ذلك أن يستغل الناس أسباب العداوة فتندلع الثورة البروتستانية الهولندية من جراء تصرفات الإسبان الكاثوليك[16].

والعوامل الجغرافية أكبر الأثر في تكييف ميول أهل الأراضي الواطئة وعليها توقفت قدرتهم ورغبتهم في تحرير أنفسهم لم يكن بد من أن جرى اتصال إبان العصور الوسطى بين شمال أوربا الذي كان يسير تدريجيًا في طريق المدنية وبين جنوبها العريق في مدينته، وكان المسلمون يضعون أيديهم على بوغاز جبل طارق ولم تكن هناك طرق توصل بين الشمال والجنوب ومن أصبح للأنهار الأهمية الكبرى ونهر الراين هو دون الأنهار الأوربية الوحيد الذي يستمد مياهه من منابعه الألبية في جنوب أوربا، أضف إلى ذلك أن واديه يبدو في خريطة أوربا الغربية كما لو أن الطبيعة قد قدته في الهضبة المحيطة به وهبطت به إلى مستوى لا يزيد عن بضع مئات من الأقدام فوق سطح البحر، هذا الوادي كان الطريق الرئيسي في أوربا الغربية الذي انتقلت عليه الأصواف المستوردة من إنجلترا، وإنجلترا في تلك الأيام كانت

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

image
not
available

image
not
available

الهولنديون يجوبون البحار في أربعة أركان المغمورة، وبعد بضعة أعوام أخرى حين بلغت قوتهم ذروتها كانوا سادة جزائر الهند الشرقية بلا منازع، وأسسوا مستعمرات لهم في البرازيل وفي غيانه وارتادوا رأس هورن[17] وداروا حوله واطلقوا عليه اسم قرية صغيرة من قرى بلادهم التي اشتهرت بصيد الأسماك، وامتلكوا محطات تجارية على شواطئ غينا في أفريقيا وأسسوا المستعمرات في مدينة الرأس في طريقهم إلى الهند وامتلكوا جزائر موريس واطلقوا عليها اسم أميرهم كما امتلكوا جزيرة سبيلان ووضعوا أيديهم على مدخل أمريكا الشمالية عند مدينة نيو أمستردام[18]، أضيف إلى ذلك أنهم قاموا بالجزء الأكبر في نقل التجارة بين دول أوربا كما نقلوا البضائع بين إسبانيا وفرنسا وأمريكا، ولقد جعلوا من أنفسهم عمال الشحن في البحار كما سموا أنفسهم وهكذا انتقلت إليهم سيادة البحار التي كانت لإسبانيا والبرتغال وأن ظلت إسبانيا محتفظة بثمرات فتوحاتها.

غير أن السيطرة البحرية الهولندية كان لابد وأن تدول لأسباب جغرافية، كما دالت من قبل السيطرة البحرية الإسبانية والبرتغالية، وقد تقدمت وسائل استغلال الطاقة وأصبحت منتجات البلاد البعيدة في متناول الجميع بأثمان رخيصة نسبيًا.

ولكن الضرورة تدعو إلى شيء أبعد من ذلك، ولنضرب مثل الآلة السابق ذكره توضيحًا لهذه الحقيقة، فكل آلة في حاجة لبعض العناية لصيانتها لتحول دون تسرب طاقتها حتى تؤدي عملها كما يجب، ولتحول أيضًا دون تأثير العوامل المضادة تأثيرًا ضارًا فيها، ولكي نوفق إلى هذه النتيجة يجب أن توجه الطاقة لتصرف في وجوه نافعة، والخير كل الخير أن تقل الطاقة المتسربة ما أمكن، وهولندة ليست بطبيعة تكوينها قادرة على أن تبذل من جهود هاما يكفي لحمايتها، ذلك أن دلتا الراين صغيرة جدًا ولا تستطيع أن توفر الغذاء والحياة لعدد كبير من السكان، ومن ثم قل عدد أفراد المجتمع الذين تربطهم صلات المصلحة المشتركة وممن

تتجاوب مشاعرهم وعواطفهم، فلما استمر الصراع بين الإسبان وهم رجال بر والهولنديين وهم رجال بحر آلت سيادة البحار للأمة البحرية، ولكن لما نشب الصراع بين الهولنديين وبين أمة بحرية أخرى تدخلت اعتبارات أخرى في تقرير المصير.

أضف إلى هذا أن المستنقعات التي تكثر بدلتا الراين والقنوات التي تتخللها كان لها أكبر الفضل في توفير الحماية للدولة الناشئة، شأنها هنا كشأن المستنقعات التي أحاطت بمدينة البندقية أو كالمستنقعات التي أحاطت ببابل - وبفضلها أحرزت هولندة

مادة محمية بموجب حقوق النشر

image
not
available

الأقاليم المفتوحة خارج شبه الجزيرة الإيطالية، وهنا تمتد سلسلة من السهول تتكون على التوالي من السهل الساحلي ثم من وادي الرون والساؤن والممر الواقع بين جبال البرانس والهضبة الجنوبية وقد وقفت مرتفعاتها في الثغرة الواقعة ببين جبال الألب وجبال البرانس، وامتازت هذه الهضبة بالخصائص الاقتصادية التي تسود أقاليم المرتفعات عادة، فتناقضت تناقضًا بينًا مع المنخفضات على كلا الجانبين وما جبال السفن سوى الحافة الجنوبية الشرقية لهذه المرتفعات في انحدارها ويسير خط تقسيم المياه متتبعًا أعلى قممها الوسطى ومتجهًا نحو بريتاني وتمتد على طول هذا الخط مرتفعات الأوفرن وعلى جانبيها يقع سهلا اكوتانيا وشمال فرنسا، وتتكون ترتهما من مخلفات الرواسب المختلطة التي تخلفت عن فتات صخور متنوعة، ولهذا امتازت بخصوبتها وعلى الأخص تلك الطبقات الرسوبية التي تملأ وادي اللوار والجارون مخترقة ممر بواتييه وتيسر سبل الاتصال بين السهلين.

الخريطة رقم 31 - تضاريس فرنسا

وقد خلت البلاد في العصور الوسطى من الطرق، لأن الطرق الرومانية قد

مادة محمية بموجب حقوق النشر

أصابها التهدم والإهمال، فجرى معظم النقل في الأنهار حتى أن الملاحة في ذلك العهد استخدمت أنهارًا تتاهت في الصغر ولا نفكر اليوم قط في استخدامها، وكان أثر الطرق المائية عظيما في تطور السهل الشمال، فإن نهر السين وروافده تكاد تصلح للملاحة حتى منابعها، فيأتي نهر الوازمن الشمال الشرقي ويتصل بالسين بعد باريس مباشرة كما يجرى نهر المارن من الشرق ويتصل به قبل باريس مباشرة، ويجرى نهر يون Yonne من الجنوب متجهًا إلى باريس أيضًا، وهكذا نجد شبكة من الطرق المائية تتركز خطوطها حول باريس، وأكثر من هذا أن نهر اللوار يغير اتجاهه عند مدينة أورليانز فأصبح بمثابة طريقين مائيين يؤديان إلى باريس أحدهما يتجه من مصبه إلى أورليانز والآخر يتجه من منبعه إليها مما أدى إلى اتصال باريس بسهول أكوتانيا وبالوديان الجنوبية التي تتخلل مرتفعات الجنوب، كما نجد أن وادي الرون والساؤن يهيئان على طول امتدادهما منفذًا سهلا إلى سهول لانجدوك الجنوبية ويمسكان باريس من الاتصال بها عبر مرتفعات كوت دور Gote d'or وهكذا أصبح من الميسور حتى لهذه المنطقة البعيدة أن تكون على اتصال بباريس.

وهكذا تمت فرنسا حول باريس كما نمت الإمبراطورية الرومانية حول روما وكما أن روما اكتسبت أهميتها حين جاء الغزاة البريون من الشمال واستولوا على جنوب إيطاليا، كذلك اكتسبت باريس أهميتها لأول مرة حين جاء النورسمن أو أهل الشمال يمخرون عباب البحار على طول سواحل أوربا ثم يدخلون إلى نهر السين ويصمدون فيه حتى يصلون إلى جزيرة صغيرة في وسط مجراه، وهنا كان الوطنيون قد وجدوا في هذه البقعة خير مكان لعبور النهر فأقاموا جسرًا فوقه، والجسر بطبيعة الحال يمنع مرور القوارب وهنا وجد رجال البحر من النورسمن عقبة تحول دون تدمهم في غزواتهم، وهكذا نجحت باريس في مقاومة أهل الشمال فاكتسب موقعها بعض أهميته.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الخريطة رقم ٣٢

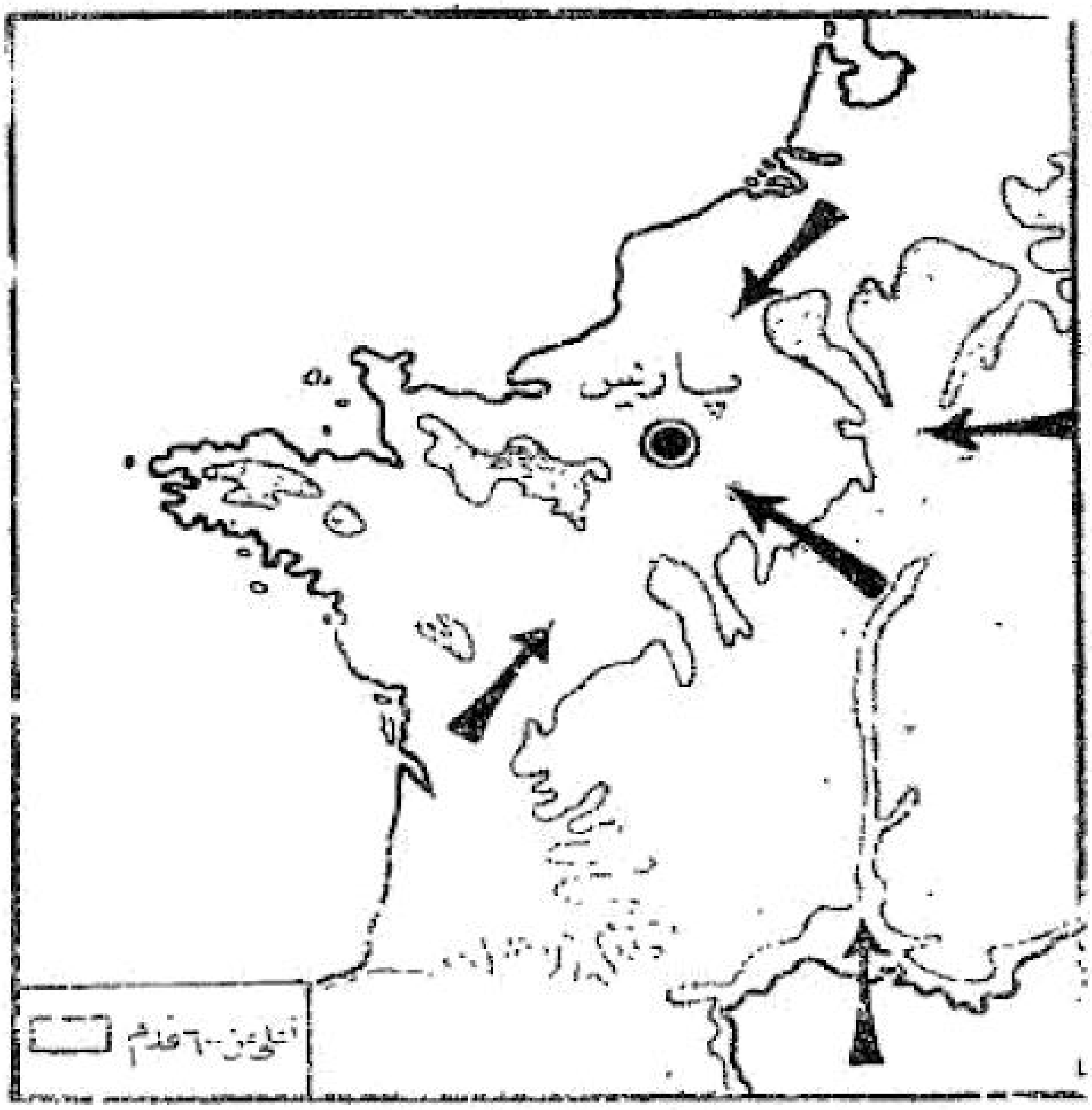

موقع باريس — تؤدي الطرق البرية الطبيعية إلى باريس

الخريطة رقم 32 - موقع باريس – تؤدي الطرق البرية الطبيعية إلى باريس

ثم أصبح حكام هذه العناصر النور ماندية غزاة لإنجلترا وحكاما لأجزاء متعددة من غربي فرنسا ومن عادة سواد الشعب ألا يهتمون بمن تكون له الغلبة أو بمن سيتولى أمورهم ولكنهم لم يثقوا في ملكهم لمجرد نقله العرش إلى إنجلترا، وكانوا يفضلون لو أنهم أخلصوا في ولائهم لحاكم يتخذ باريس له مقرا، وبالتدريج اعترفت الوحدات المختلفة بحاكم باريس كسيد لها، ومما زاد في هذه الخطوة سرعة ونضوجا تصرف ملك إنجلترا وممثليه لأنهم كانوا ينظرون بغير وعي منهم إلى البلاد الواقعة في الساحل الجنوبي لبحر المانش نظرتهم إلى إقليم اجنبي، ولنضرب لذلك مثلا "الأمير الأسود الذي أعمل السلب والنهب في الساحل الغربي من بوردو جنوبا لا لسبب الحصول على الأسلاب والغنائم".[19]

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الخريطة رقم 33 - الطرق الآتية في السهل الشمالي لفرنسا كلها تؤدي إلى باريس

الفصل الحادى عشر

المحيط - الإمبراطورية المحيطية - بريطانيا

هناك فارق واضح بين بريطانيا والبلاد الأخرى التي تعرضنا لها حتى الآن، ذلك أن بريطانيا وحدها جزيرة أو بالأحرى جزيرتان لهما مساحة لا بأس بها وعلى درجة من الكفاية تمكنهما من أن

مادة محمية بموجب حقوق النشر

تعولا عددا كبيرا من السكان.

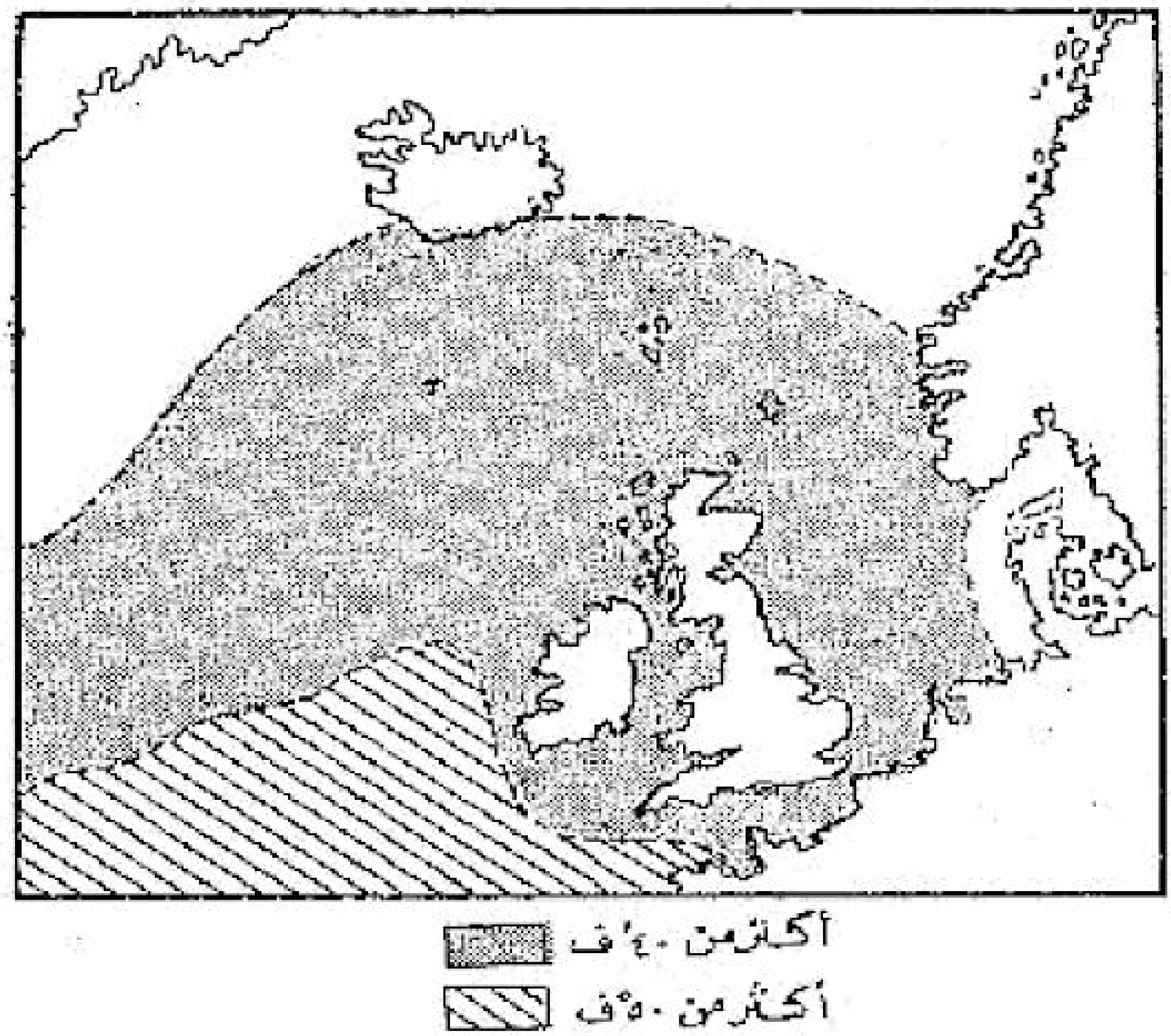

الخريطة رقم 34 - حرارة المياه في المياه البريطانية في شهر يناير

وهناك عوامل جغرافية أخرى يجب علينا دراستها قبل أن ندرك الدور العجيب الذى لعبته بريطانيا في التاريخ حتى اليوم.

أولا - المناخ: تتمتع بريطانيا كغريها من البلاد التي تطل على المحيطات بمناخ معتدل ليس فيه تطرف. فالرياح الغربية السائدة تجلب إلى شواطئ شمال أوربا الغربية طبقة من المياه تبلغ في عمقها نحو نصف الميل وهي على درجة من الحرارة تزيد عن المألوف في مثل هذه العروض مما يحول في الشتاء دون تجمد المياه في التربة وفي الأنهار وعلى الشواطئ.

ثم أن بريطانيا توغل في موقعها صوب الشمال مما يجعل مناخها في الصيف دفيئا لا حارا مع استمرار خضوعها لمؤثرات المحيط.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

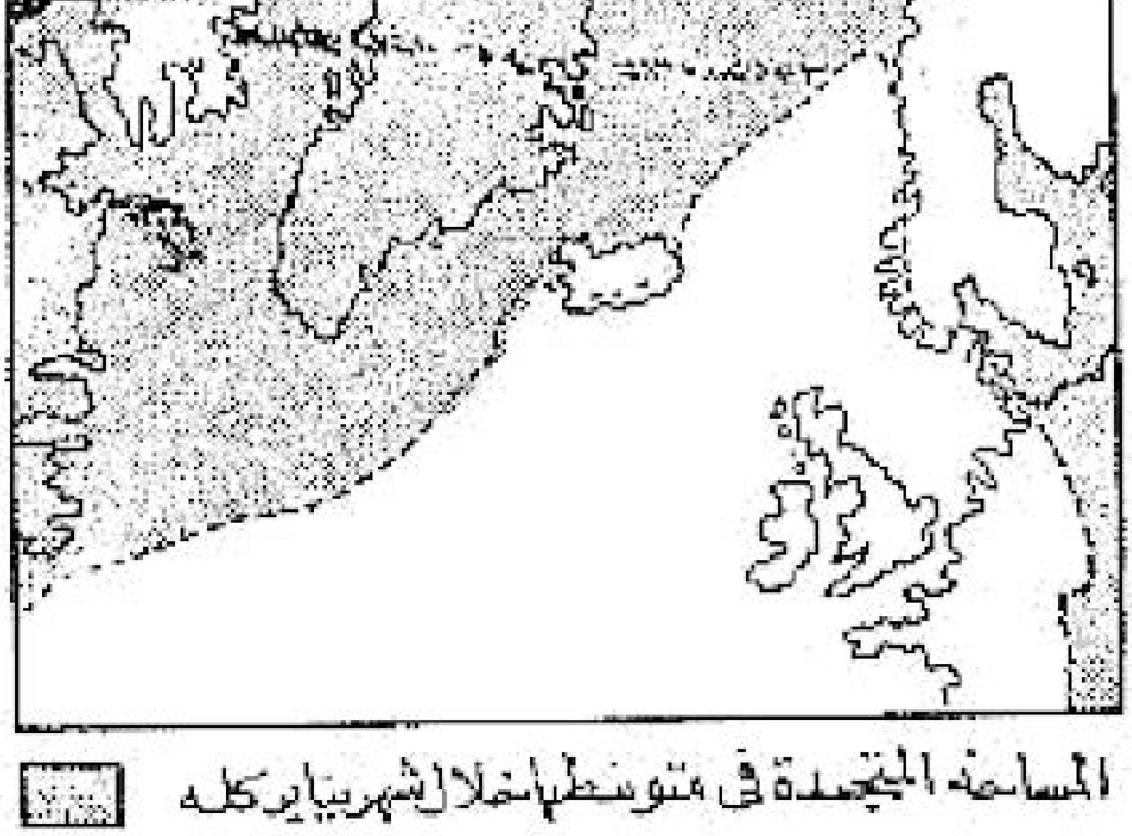

الخريطة رقم 35 - خليج الدفء.
تظهر الخريطة الوضع الشاذ لمناخ بريطانيا

وهكذا أصبح العمل في بريطانيا ميسورا في كلا البر والبحر وعلى مدار السنة فهي تمتاز بشتاء يبعث برده على النشاط لا الألم والعجز، وفي صيفها حرارة لا تبعث على الضعف والخمول فيمكن استغلال الطاقة في كل وقت. أضف إلى هذا أن الرياح الغربية في هبوبها تجلب معها الأعاصير التي تسبب سقوط الأمطار فتنمو الأعشاب في كل فصل، ولا احتمال للجفاف فيها إبان فصل الصيف، بل إن التقلبات الجوية التي تعاب على جو بريطانيا لتحفز أهلها إلى العمل دائما وتبعث بالنشاط إلى نفوسهم.

ثانيا – التضاريس : نجد في جزيرة بريطانيا العظمى إقليمين من المنخفضات أكبرهما يقع إلى الجنوب الشرقي مكونا الجزء الرئيسي من إنجلترا وأصغرهما يقع بين نهر الفورث والكلايد مكونا الجزء الرئيسي من اسكتلندا[20].

كما تمتد الأراضي المنخفضة في إيرلندة شرقا وغربا في أواسط الجزيرة ومن ثم صلحت مساحات واسعة للزراعة في هذه المنخفضات – وكانت وحداتها كبيرة المساحة نوعا ما – حتى أنه ليتسنى لنا مقارنة الأراضي المنخفضة في إنجلترا بالأراضي المنخفضة الفرنسية على الرغم من أن تاريخ بريطانيا في مراحلة الأولى امتاز بوجود وحدات سياسية صغيرة عزز الاستقرار فيها إلا أنه حين تقدم السكان

مادة محمية بموجب حقوق النشر

في مدينتهم وخضعوا جميعا لحكومة واحدة يسود نفوذها كل الأراضي السهلة أصبحت تلك الحكومة موطدة الأركان منسجمة العناصر.

ثالثا – المد والجزر: ولننظر الآن إلى خريطة لشمال أوربا الغربية مبينا عليها أعماق البحار أي تضاريسها فيما تحت مستوى الماء، فنرى أن بريطانيا تقع على رصيف القارة وهو بروز لا يكاد تغطيه مياه البحر، ولو أصاب الأرض ارتفاع يقرب من ستمائه قدم أو نحوها لاتصلت بريطانيا بالقارة، لا عن طريق مضيق دوفر فحسب، بل عبر بحر الشمال وبحر المانش أيضا، ولهذه الحقيقة نتائج هامة – فإن موجه المد الناشئة في المحيط الجنوبي حيث يحيط الماء بالكرة الأرضية إحاطة السوار بالمعصم هذه الموجة تكتسح محيطات الهندي والهادي والأطلسي بسرعة كبيرة ولكنها لا تسبب لمستوى الماء ارتفاعا أو هبوطا أكثر من قدم واحد تقريبا. وحين تقترب هذه الموجة من شاطئ ضحل تنقص سرعتها ولكنها تزداد ارتفاعا – فإذا ما اتسع هذا الشاطئ الضحل وبلغ عرضا كبيرا زاد ارتفاع المد وهبوط الجزر زيادة عظمى – وإذا ما اقتربت موجة المدن من قارة تهبط سواحلها بانحدار مفاجئ إلى عمق كبير تحت سطح البحر فإن شواطئها تكاد لا تحس بالزيادة مطلقا، بل وقد لا توجد حركة المد والجزر إطلاقا. ولهذه الأسباب لا تجد مدا أو جزرا من أي ارتفاع كان على سواحل النرويج وإسبانيا – ومن الواضح أيضا أن البحار المقفلة – كالبحر المتوسط وبحر البلطيق – تخلو من موجات المد والجزر لأن الموجة المحيطية تعجز عن الدخول إليها، وهكذا نجد ان شواطئ بريطانيا والشواطئ المقابلة لها من الجانب الآخر من القارة ابتداء من ميناء هامبرج حتى رأس خليج هسكاي هي وحدها من بين شواطئ أوربا التي تنتظم فيها حركة المد والجزر مرتين يوميا فتطهر مصلت الأنهار من رواسيها – وتمكن للقوارب من أن تدخل وتخرج إلى عرض البحر وأن تدور حول التعاريج التي يصعب أو يتعذر على السفن الشراعية المرور فيها – ولهذا امتازت بريطانيا وشمال فرنسا وغرب ألمانيا بمصبات خليجية واسعة يمكن أن تدخل إليها السفن من عرض البحار وتنقل فيها البضائع لمسافات طويلة في داخل اليابس فيقل المجهود الذى يبذل في نقلها، و كان لذلك أكبر الفائدة إبان العصور الوسطى حين نسى الناس كيف يشيدون الطرق وقبل أن يفكروا في اختراع السكك الحديدية.

رابعا – موقع بريطانيا بالنسبة للعالم القديم. كذلك تشارك بريطانيا غيرها من بلاد شمال غرب أوربا ميزة الموقع الجغرافي. فهي تقع على الحافة الخارجية للعالم القديم الذى كان موضع اهتمام الناس في تلك الأيام قبل اكتشاف أمريكا – فكانت بريطانيا واقعة في نهاية العالم وليس وراءها شيء ولا يؤدى الطريق إليها إلى مكان

مادة محمية بموجب حقوق النشر

ما بعدها، فلم تر سواحلها سكان المراعي عند مجيئهم من الشرق ولم تر المسلمين عند مجيئهم من الجنوب - على الرغم من أن العرب قد وصلوا في زحفهم إلى بواتيية وعلى الرغم من أن البلغار قد تقدموا حتى عبروا نهر الراين - إلا أن بريطانيا تركت وشأنها فلم تك مثلا كصقلية؛ جزيرة خليقة بأن يكون لها تاريخ خاص غير أنها لم تكن كذلك نظرا لأنها تقع بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب، وبين الأغريق والفيليقيين؛ وبين الرومان والقرطاجيين؛ وبين المسيحية والإسلام؛ وبين النورمانديين والعرب؛ وبين الأتراك والإسبان - ولهذا كان تاريخ سقلية هو مجرد تاريخ الصراع القائم بين القوى المختلفة التي تقابلت فيها وكانت ميدان المعركة المشترك لها جميعا لأنها تقع وسط العالم المحيط بالبحر المتوسط إبان العصور القديمة والعصور الوسطى.

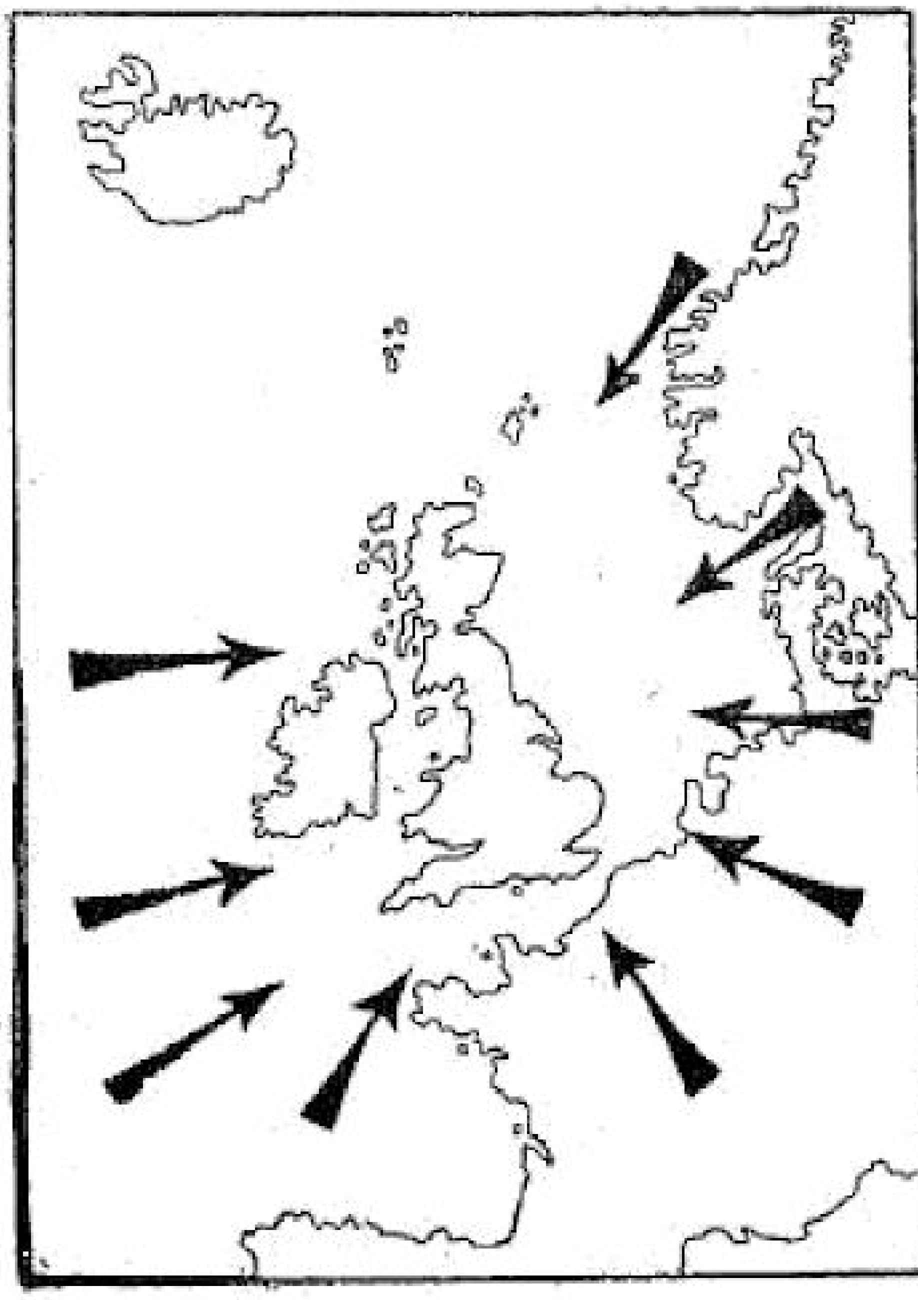

الخريطة رقم (36) - منافذ بريطانيا

تظهر الخريطة أنه يمكن الوصول إلى بريطانيا بسهولة من أكثر من نصف دائرة محيط بها. وليس الشمال النرويج أهمية تذكر في هذا المجال.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

وهكذا بقيت بريطانيا بلادا منعزلة حتى اكتسب المحيط أهميته فجأة بفضل اكتشاف البرتغاليين والإسبان، وحتى اليوم لا تدين بريطانيا في أهميتها لموقعها في قلب الكتلة اليابسة. هذا ولو وازنا بين الطرق التي تتخذها السفن في ذهابها إلى بريطانيا وخروجها منها لم نجد نقلا ما يجرى في نحو نصف دائرة تحيط بها من الغرب إلى الشمال ثم إلى الشمال الشرقي لأن الطريق إلى الشمال منها لا يؤدى إلى هدف ما - والهجوم من ذلك الجانب هو أبعد الاحتمالات.

هذه العوامل السابقة جميعا تحكمت في تاريخ بريطانيا مجتمعة تارة ومتفرقة تارة أخرى.

ولما كانت بريطانيا قابعة في نهاية العالم فقد بقيت لدى عصور طويلة الملاذ الأخير، الذى تلجأ إليه القبائل المهاجرة مارة بزاريتها المواجهة للقارة عند دوفر، ثم اضطرت هذه القبائل إلى الانتقال إلى الشمال الغربي منها رويدا رويدا كلما ضغط عليها مهاجرون جدد - وأننا لا نستطيع أن نتحدث حديث الواثق عن الدوافع التي حدت بهؤلاء الناس إلى أن يعبروا البحر إلى بريطانيا وهم يبصرون شواطئها من سواحل القارة - بل أن حديثنا عن دوافعهم هو من قبيل الحدس والتخمين، ومهما كان الأمر فقد توالت عليها موجات الهجرة، وكل موجة من المهاجرين أرقى مدنية من سابقتها وأقدر على استخدام الطاقة في كلا الحرب والسلم، ولا شك أنهم اقتبسوا وسائل استخدامها واستغلالها من آخرين - فكانوا مجرد مقلدين. وتركوا أثرا ضئيلا في التاريخ. ثم أصبحت السهول الإنجليزية في آخر الأمر جزءا من الإمبراطورية الرومانية ومن ثم دخلت بريطانيا في نطاق العالم المتمدن وسارت في موكب الحضارة.

واستمر تأثير جغرافية بريطانيا على تاريخها باعتبارها جزيرة حتى بعد جلاء الرومان عنها، فلما لم يكن بها حكومة مركزية منظمة شن عليها رجال البحر هجماتهم من كل ناحية، وقد جاؤا إليها من وراء بحر الشمال، فهاجمها السكسون والجوت والإنجلز والدنمركيون والنورسمن من جميع الجهات من الجنوب والشرق والشمال والغرب، وأقاموا بها دويلات صغيرة وأدخلوا إليها عادات وطرائق في الحياة لا يزال يشعر أهل إنجلترا بأثرها حتى اليوم - بل وقد أقيمت إمبراطورية على شواطئ بحر الشمال عاشت لبضعة أعوام كانت تشمل فيما تشمله جميع الأراضي السهلة في بريطانيا.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

كما أمنتهم شر الفوضى الداخلية فباعوا أصوافهم إلى التجار فيما وراء البحار وازدهرت تجارتهم شيئا فشيئا وجمعوا الطاقة واستخدموها في سبيل الحصول على قسطا أكبر منها، وذلك بفضل الحقيقة الراهنة وهي أن العمل ميسور طوال العام، وأن السفن تستطيع أن تدخل في الخلجان إلى مسافات بعيدة في داخل اليابس لكى تفرغ شحناتها أو لكى تحمل بضائعها - وهذا الرقى كان ميسورا لا لمجرد احتماء البلاد بالبحر من جميع جهاتها فحسب، ولكن لأن البلاد خضعت لحكومة مركزية وطيدة الأركان، وهكذا أصبحت إنجلترا في واقع الأمر أول دولة أوربية ذات حكومة مركزية في العصور الحديثة.

ولقد ظلت طيلة هذه الأيام وهل في نهاية العالم، ثم تغيرت الحال باكتشاف المحيط وارتياد أمريكا فأحدث فيها هذا الكشف أثرين مختلفين: -

أولا - وجدت بريطانيا نفسها تواجه المحيط مباشرة وتتعرض لمؤثراته، مثلها في ذلك كمثل البرتغال وإسبانيا وهولندة وفرنسا، وأبحر الناس منها بسهولة كما كانوا يبحرون من غيرها وخرجوا يبغون الدوران حول العالم، بل حاولوا فعلا الوصول إلى الهند وجزائر الهند الشرقية. وقبل أن يبدأ كولمبس رحلته بأثنى عشر عاما أرسل تجار بريستول بعثاتهم وسفنهم بقصد اكتشاف الجزر التي تصلح لأن تكون محطات في الطريق إلى أرض التوابل في الشرق الأقصى.

ثانيا - وكلما ازدهرت حركة النقل في المحطيات إلى الهند وإلى أمريكا أصبحت هذه البلاد وثيقة الصلة بشواطئ بريطانيا الجنوبية بينما ظلت شواطئها الشمالية الغربية منقطعة عم كل تجارة وبعيدة عن كل هجوم.

ونستطيع أن نستنتج سير الأحداث في بريطانيا - كما جرت عادتنا دائما - بتتبع تاريخها الماضي وبدراسة أحوالها الجغرافية، فقد نهضت إنجلترا واحتلت مكانتها بين الدول الناهضة في العصور الوسطى بفضل دفاعها عن نفسها على متن البحار المحيطة بها - كما أدى قيام حكومتها المركزية إلى ازدياد ثروتها وتوطيد الأمن فيها، فاشتغل جزء كبير من أهلها بالملاحة وأدرك تجارها أنهم يجنون ثروات لو مارسوا التجارة فيما وراء البحار - ومن ثم أصبحوا عماد ثروتها المتزايدة والمدخرة ولم يكن البحر شيئا مجهولا بالنسبة لبريطانيا إلا أنها تفد كثيرا من اكتشاف طريق الهند إذا اغتصبت البرتغال من الجمهوريات الإيطالية اللجوء الأكبر من التجارة الشرقية - ثم تبعتها هولندة بعد ذلك، واستولت إسبانيا على البلاد ذات المعادن الثمينة - حقا أن بحارة الإنجليز أثبتوا تفوقهم على الجنود الإسبان الذين

مادة محمية بموجب حقوق النشر

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.